بروليتاريا

بروليتاريا

رواية

جمال عبد الله مصطفى

إصدار: سبتمبر ٢٠٢٠

منشورات دار لوتس للنشر الحر

مشروع النشر الحر - الإصدار رقم: 473

www.lotusfreepub.com

رقم الإيداع

2021/3223

الترقيم الدولي ISBN

978-977-6839-43-4

الغلاف والإخراج الفني: دار لوتس للنشر الحر

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر، وجميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو موافقة دار النشر.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بروليتاريا

رواية

جمال عبد الله مصطفى

إهداء

إلى زوجتي الحبيبة.. وشريكة عُمري .. سُعاد
وأطفالي الكبار...
عبد الله ... روح أبي
دُعاء ... قطتي الصغيرة
شريف ... آخر الأطفال المحترمين
كما أهديتكم روايتي الأولى (مترو)
أهديكم روايتي الثانية (بروليتاريا)

جمال عبد الله

(.. شعرت بالرعب يتسلل إلى قلبي، أن تكتشف الأميرة سرقة المجوهرات، وتكون نهايتي مأساوية، ما الذي دفعني، إلى ذلك التصرف الأحمق، هل من أجل زوجي إلياس، وطفلي الوحيد أنطوان، أخون سيدتي الأميرة، التي أعيش في وارف نعيمها، أو لعله الخوف من العودة إلي حياة الفقر والتشرد، التي ذقنا مرارتها في بلاد الشام، حتى دفعتنا إلى الهروب إلى مصر، للعمل في خدمة الأسرة العلوية، لكنني في مأمن من أية شبهات، فالمجوهرات ليست بحوزتي، إنها ما زالت هناك، في سرداب قصر الخديوي توفيق بحلوان، ولن أفشي بسر زوجي إلياس مهما حدث..)

من مذكرات ليليان بشرى أنطوان
وصيفة الأميرة أمينة إلهامي
زوجة الخديوي توفيق

مقدمة

قصر عين الحياة، بمدينة حلوان بالقاهرة، الذي كان قصرا للخديوي توفيق، حفيد محمد علي باشا الكبير، مؤسس الأسرة العلوية في مصر، القصر الذي كان يضاهي في روعته، أجمل القصور الفرنسية والإنجليزية، التي اشتهرت بمبانيها العالية، وجدرانها المنحوتة بالزخارف والتماثيل، كان الخديوي توفيق يتخذه مقرًا للاستجمام، ولعقد اجتماعاته الحكومية المهمة. والقصر يحوي ثلاثمائة وخمسة وستون غرفة، غير الممرات التي تحت الأرض، فبداخله سرداب سرى تحت الأرض، يصل حتى ركن توفيق، الذي كان يجلس فيه مع ضيوفه، وبداخله خزينة كبيرة، مع غرفة خاصة تحت القصر، للأميرة خديجة ابنته.

مع مرور الزمن أصبح القصر، ملاذا للمتشردين والخارجين على القانون، ذلك القصر العتيق المتهالك، الذي يرتفع بكل كنوزه، فوق ربوة أرضية، كان يحوي أربعة تماثيل أثرية على جوانبه، لا تجد منها سوى اثنين، عليهما آثار دماء بأسماء أشخاص مبهمة. ذلك القصر، الذي نسج الناس حوله، الكثير من القصص الخيالية، فالبعض يؤكد، أن أشباح تسكنه منذ عشرات السنين، والبعض الآخر، يشير إلى وجود ثعابين، وزواحف قاتلة بداخله، بينما الرواية الثالثة، تشير إلى اتخاذ البلطجية والخارجين عن القانون، القصر مرتعا لأعمالهم المنافية.

١

في ذلك الصباح الشتوي البارد، كان مسعود، أحد هؤلاء المتشردين، الذين يسكنون القصر، يرقد تحت غطاءه البالي، حينما استيقظ فجأة، على صوت شربات، تستغيث به، لينقذها من براثن عباس، أحد متشردين القصر، فرفع الغطاء عن جسده البارد، وأسرع نحو صوتها المنبعث، من بهو القصر الكبير، فوجد عباس يحتضنها بعنف، محاولا النيل منها، وشربات تحاول التملص منه، تركله بقدمها، وأظافرها تنحت في وجهه، جروحا عميقة، هرول مسعود نحوهما، وانتزعها من بين أحضانه بصعوبة، بعدما لكم عباس، لكمة قوية في وجهه، أفقدته توازنه، ودفعه بقوة، فأطاح به بعيداً، وسحب شربات خلف ظهره، ليقف عباس بجسده الممتلئ، الذي يشبه جسد الثور، في مواجهة مسعود، ولتبدأ معركة دامية، استعرض فيها عباس، قدراته العضلية أمام رواد القصر، الذين تجمعوا على صوت المشاجرة، لكن مسعود أثبت جدارة فائقة، في التصدي إليه، فاضطر عباس، إلى استخدام الأسلحة البيضاء، ليترك في وجه مسعود، جرحا سطحيا، سالت منه الدماء.

توقف القتال فجأة، حينما سُمع صوت قوي، يأتي من شرفة

الطابق الثاني، فانصاع الجميع إليه، في خشوع، وكأنهم قد تحولوا إلى تماثيل فرعونية.

إنه الخديوي عتريس، فتوة القصر، وصاحب الكلمة العليا فيه، والذي كان يعمل أمين شرطة، وتم فصله من الخدمة، لحصوله على رشوة مالية، لاستبدال حرز أحد القضايا بحرز آخر، بعدها سافر إلى العراق، وانقطعت أخباره لعدة سنوات، لكنه عاد بعد سقوط بغداد، ليجد زوجته، قد حصلت على حكما غيابيا بالطلاق، وباعت شقة الزوجية، وأخذت أولادها وهربت إلى الإسكندرية، فوجد نفسه صفر اليدين، بلا عمل ولا مأوى، لم يجد إلا ذلك القصر المتهالك ملاذا له، لم يحاول البحث عنهم، فلم يعد يفكر فيهم، أو يشتاق إليهم، لقد تركهم للأيام، لكي تعيدهم، ولكن كيف؟ وحياته المعربدة، لن ترضي زوجته، ولن تحقق طموحات أبناءه، لقد سقط من حساباتهم، منذ أن تم إيقافه عن العمل.

وقف عتريس، مرتديا بذلة عسكرية قديمة، خالية من النياشين، يبرز منها جسده القوي، وملامحه الغليظة، هرش في ذقنه الخفيفة، الممتلئة بالشعر الأبيض، ثم أشار إلى رجاله، الذين رسم الإجرام ملامحه، على وجوههم بقسوة، فنزلوا إلى بهو القصر، فتشوا مسعود، فلم يجدوا معه شيئا، وأخرجوا من ملابس عباس، أوراقا مالية من عملات مختلفة، وحبوبا مخدرة، وقطعا من الحشيش، ملفوفة في ورق سوليفان معدة للبيع، أما شربات،

المذعورة والمتشبثة بذراع مسعود، أشار إليهم أن يتركوها.
تم وضع الأشياء المحرزة أمام الخديوي، تفحصها بعيونه الواسعة في سعادة، أطلق نافورة من دخان سيجارته، وأشار إلى أحد رجاله، أن يضعها في غرفته، وصرخ بصوته الجهوري
ـ القصر ده ملكي أنا.. اسمي مكتوب على كل حيطة فيه.. اللي يحترم قوانينه..أهلا بيه في وطنه.. لكن اللي يتعدى حدوده أدفنه فيه.. أنت يا واد يا عباس..اطلع بره يا ابن الكلب
اضطر عباس أن يهرب، خوفا من عتريس ورجاله، الذين يستطيعون الفتك به في لحظات، بينما وقف الخديوي يتأمل جسد شربات، المتشبثة بمسعود كطفلة صغيرة، كم تمنى أن ينال منها، لكنها متمنعة، تعشق مسعود بلا مبرر، أشار إلى مسعود
ـ بعد ما تخلص مقابلتك الغرامية.. تطلعي فوق عايزك..
عاد عتريس إلى غرفته، بعدما صرخ، في الجموع المحتشدة، في بهو القصر بالانصراف، تاركا مسعود منتصبا كشجرة من السنط، وشربات تلملم الدماء، التي تسيل من وجهه، فجذبها من ذراعيها، وسحبها إلى غرفته وعنفها
ـ قولت لك ألف مرة ما تجيش الخرابة دي تاني!
لم تبالِ شربات بكلماته المعاتبة، بل استغلت، تلك الفرصة التي سنحت لها، بأن صارا بمفرديهما في غرفته، التي لا تحوي، غير تلك الجدران الحجرية المتآكلة، بفعل الرطوبة، والحصيرة

البلاستيكية، التي يفترشها على الأرض، ويتخذ منها سريرا، والصندوق الكرتوني، الذي يلملم فيه ملابسه، لامست بأصابعها شفتيه ووجهه، تتمتم بعبارات عشق، تنم عن عاشقة، تموت عشقا بمسعود، فأزاحها بيده، فظروفه لا تسمح بعلاقة، قد تؤدي به إلى أسرة، تتعلق برقبته، فتقضي حياتها في مهب الريح، كحياته الفارغة من الأمان.

مدت يدها إلى صندوقها، الذي تضع فيه المناديل، والتقطت جريدة، ملفوف بها طعام الإفطار، وما أن رأى مسعود الطعام، حتى تحركت معدته، فابتسم ابتسامة خفيفة، شجعتها على الاقتراب منه، والالتصاق بجسده، لفت ذراعيها حول عنقه، لتطبع قبلة على شفتيه، لكنه أزاح ذراعيها مبتعدا عنها، وسحب زجاجة المياه التي بجواره، وسكبها فوق رأسه، فأغرقت وجهه وملابسه، نظرت إليه بغيظ، سحبت صندوق مناديلها، وهرولت نحو باب القصر.

ـ اعمل حسابك.. هجبلك الغداء قبل المغرب..

ظل يتابع جسدها الفائر بعباءتها السوداء الضيقة، التي تظهر تفاصيل جسدها الرشيق، وهى تعبر طرقات القصر، الممتلئة بالحفر، الناتجة عن عمليات التنقيب عن الآثار، بداخل القصر. شعر مسعود بأن مثانته، ممتلئة عن آخرها بالمياه، فاتجه نحو ركن من أركان الغرفة، وعلى أحجار الحائط المتهالك، أخرج كمية كبيرة من المياه الساخنة، حتى فرغت مثانته تماما، وجلس

فاتحا اللفة المحشوة بالطعام، التهمها عن آخرها بشراهة، ثم أتبعها بنصف زجاجة مياه، ثم أخرج من جيبه علبة سجائر، تحوي سيجارة واحدة، أخرجها ثم أطبق العلبة الفارغة بين أصابعه، وألقى بها بعيداً، أخرج علبة الثقاب، أشعل سيجارته الوحيدة، وأخذ ينفث دخانها في الهواء، الممتلئ برائحة بوله، وبقايا طعامه، ودخان سيجارته.

دخلت عليه أم سكر، تلك المرأة الأربعينية، التي تمتلك مسحة من جمال قديم، بجسدها الممتلئ، وعيونها الواسعة وشفتيها المكتنزة، وأنفها الصغير، ووجهها النضر، الذي يوحي بالإغراء.

أم سكر تلك المرأة، التي انتقلت مع زوجها، وأولادها إلى القصر، بعدما تصدع البيت الذي يعيشون فيه، ولم تجد سكنا يأوي بناتها الخمس، فلجأت مرغمة إلى العيش، في ذلك القصر المتهالك، واتخذت من الغرفة المجاورة، لغرفة مسعود سكنا لهم. اقتربت من مسعود، ووضعت في يده كوبا من الشاي الساخن، ثم جمعت ملابسه المتسخة، التي يضعها على حبل، يربطه بين حائطين من حوائط الغرفة، ووضعتها على كتفيها، ثم عاودت الاقتراب منه، ومدت يدها لتنزع عنه، تلك السترة الشتوية التي يلبسها، ووجهها يقترب من وجهه، وكأنها تريد أن تلتصق به.

ـ ما تخلع الغيار ده... أغسله معايا بالمرة

لكنه تراجع عدة خطوات، حتى التصق بالجدار مبتعداً عنها،

حاولت الاقتراب من جديد، لكنها شعرت بالحرج، حينما دخلت عليهما ابنتها سكر، ذات الثلاثة عشر ربيعا، نحيفة الجسد، غائرة العينين، صغيرة الفم، توحي ملامحها بأنها مريضة، ولكن يبدو من نظراتها الثاقبة، أنها على قدر كبير من الذكاء، وقوة الشخصية، استطاعت إجبار أمها، على العودة إلى الغرفة، رغم أن أمها، قد أعطتها ملابس مسعود المتسخة، وطلبت منها، أن تضعها مع الغسيل، الذي ستغسله، لكنها ظلت واقفة في انتظارها، فاضطرت أم سكر، إلى الخروج مع ابنتها، بدون أن تنطق بكلمة واحدة.

• • •

۲

محطة مترو حلوان، مزدحمة عن آخرها بالركاب، والباعة الجوالين يمتلئ بهم الرصيف، يطوفون حولهم، لعرض منتجاتهم الرخيصة، وتظهر بينهم شربات، بصوتها المميز، الذي لا يقطعه، سوى صوت عربات المترو، التي لا تنقطع عن الرصيف، تمر بين الواقفين والجالسين والسائرين، بداخل المحطة، تعلن عن بضاعتها، التي لا تتعدى صندوق صغير من الكرتون، ممتلئ بالمناديل

مناديل شربات.. ناعمة وقوية وكلها حنيه

ما أن يظهر صوت شربات المميز، حتى يلتف حولها الجميع، يرمقونها بعيونهم الجائعة، فشربات محط أنظار رواد المحطة، فيحاول الرجال الاقتراب منها، والاحتكاك بها، أما بائعات المحطة، فيغرن منها، فهي تمتلك مؤهلات إغراء، تكفي لإحراق غابة من الرجال، فالبعض يشتري منها المناديل، ليحصل على دقائق من المتعة، فيقترب من جسدها الفائر، أو يلمس يدها الناعمة، أو يستمتع بالحديث معها، فهي تمتلك من خفة الظل، ما يجذب إليها الرجال، تلقي بمناديلها على الجميع، فيقفون عاجزين أمامها،

لا يملكون إلا إخراج عملاتهم، أما البعض الآخر، فيشتري منها المناديل شفقة بها، لمساعدتها بطريقة غير مباشرة.

وسط تلك الجموع، لاحظت شربات، أن هناك شاب طويل القامة، نحيف الجسد، يبدو عليه الوسامة، والإعجاب بنفسه، يراقبها من بعيد، هرش في أرنبته، تحسس شاربه الكث، عدل من وضع بنطاله، وسترته الشتوية، المكواة بعناية، حملق في وجهها، ثبت عيونه في عيونها، رمق جسدها بعيونه الجائعة، وكأنه يعاين جارية، معروضة للبيع، في سوق النخاسة، انتظر حتى اندست وسط الزحام، وبدأ في تنفيذ خطته، اخترق الجموع ببطء، اقترب منها، كاد أن يلتصق بجسدها، شعرت بأنفاسه تجتاح وجهها، ويده تقترب من نهديها، هامساً في أذنها..

ـ علبة مناديل يا حلوة

نظرت إليه بغيظ شديد، وكشرت عن جبهتها البيضاء، وأعطته علبة المناديل في صمت، فأمسك يدها برفق، وأعطاها ورقة فئة العشرة جنيهات، وطلب منها الباقي، جذبت الورقة من يده، فتشت في كيس نقودها، لكنها اكتشفت أن ما معها لا يكفي، فأعادتها إليه، بابتسامة صفراء، نفخت في وجهه، فأشعلت نيران شبقه، تنحت جانبا، وأشاحت بيدها في وجهه

ـ معكش جنيه فكه.. لسه ما استفتحناش

مد يده وأمسك يدها برفق، همس في أذنيها، طالبا أن يأخذ، بما

تبقى قُبل، من شفتيها القرمزية. رغم إنه ليس أول من يغازلها، ولن يكون آخرهم، لكنها اعتادت، أن تعطي درساً قاسياً، لأي شخص تسول له نفسه أن يقتحم عالمها، أو يحاول الاقتراب من جسدها، أو التحرش بها ولو بعيونه، نظرت إليه بغضب , وصرخت في وجهه، بصوتها الجهوري، الذي أسمع ركاب المحطة..

ـ أخرس يا ابن الكلب

صفعته على وجهه بقسوة، فظهرت آثار أصابعها النحيفة، على خده الأبيض، وازداد وجهه احمرارا من شدة الخجل، فانهال عليها ضربا بيده وقدميه.

التفت الجميع نحو مصدر الصراخ، فعرفوا أنه صوت شربات، كانت صباح أول من وصلت إليها، هرولت ناحية الشاب، وجذبته من ملابسه، صفعته على وجهه وجسده، لم تبال بضرباته التي صوبها نحو جسدها الواهن، فاضطر أن يهرب بعيدا عنهما، تاركا صباح، تمسح دموع صديقتها، استمعت إلى روايتها، التي حكتها بصعوبة، فهمت صباح منها ما حدث، فعاودت التشبث بالشاب، وصرخت وولولت، فالتف حولهم رواد المترو، عرفوا القصة، فتجمعوا حول الشاب، وأوسعوه ضربا، بعضهم تطوع لضربه، شفقة بشربات، وبعضهم حاول إظهار شجاعته أمامها، وبعضهم حاول استغلال المشاجرة، في ممارسة هوايته، في سرقة رواد المحطة، لكن بأي حال من الأحوال، انتهت المشاجرة، بتكوم

الشـاب غارقـا فـي دمـه، وارتمـت شـربات فـي أحضـان صبـاح، ترتعد خوفـا، تنهمـر الدمـوع مـن عينيهـا، تنـادي علـى مسـعود، بصـوت غيـر مسـموع:

ـ أين أنت يا مسعود؟!

• • •

١٣

بتكاسل واضح، صعد مسعود، إلى غرفة الخديوي عتريس، والتي كانت يوما ما، غرفة الخديوي توفيق شخصياً، بحوائطها العالية العتيقة، التي أكلتها الرطوبة، فتساقط بياضها، وسقفها المزين بالورود، التي مسح الزمن، الكثير من أغصانها، ونوافذها الكبيرة العالية، التي تقترب من الأرضية، المغطاة بخشب الباركيه المتآكل.

جلس الخديوي عتريس على كرسي عتيق، وكأنه كرسي العرش، وخلفه نافذة عتيقة، تخترق أشعة الشمس، زجاجها المكسور على استحياء، وأمامه مائدة كبيرة، عليها بقايا وجبة طعام دسمة، وعدة زجاجات من الخمر، وقطعا من المخدرات، مغلفة بورق سوليفان، وبيده الشيشة، سحب منها نفسا عميقا، وأطلق دخانها في الهواء، التف حوله رجاله، يصغون إليه باهتمام شديد، وهو يحكي عن بطولاته في العراق، أثناء الغزو الأمريكي، وعن اشتراكه في أعمال المقاومة العراقية، وعن تلك الرصاصة التي اخترقت قدمه، من أحد جنود المارينز، رغم أن الرواية، التي سردها أحد رواد القصر، الذي كان في العراق، تقول عكس ذلك تماما، فبعد سقوط بغداد، شارك عتريس في أعمال السلب والنهب، وأن تلك

الرصاصة التي يفتخر بها، كانت من أحد العراقيين، الذين كانوا يدافعون عن ممتلكاتهم.

جلست بجواره رفيقته نوال، إحدى فتيات الليل، التي جلبها إلى القصر، مجموعة من الشباب، لممارسة الرزيلة، لكن يبدو أن أحدهم، كان سادي المزاج، فتعامل معها بقسوة، فأخذت تصرخ، ووصل صوتها المشبع بالآهات، إلى مسامع عتريس في غرفته، فهب منتفشا كشمشون، وما أن رآها عارية، كما ولدتها أمها، حتى سرت النشوة في جسده، فخلصها من بين أيديهم، وضربهم ضربا مبرحا، واستولى على متعلقاتهم الشخصية، وطردهم من القصر، ومن يومها، التصقت نوال بجوار عتريس في القصر.

كان مسعود يتابع جسدها الأبيض، بملابسها الضيقة، وشعرها المنسدل على كتفيها، وهي تضع قطع البرتقال في فم الخديوي، الذي ينفث دخان الشيشة من أنفه، في هواء الغرفة العفن.

وقف مسعود أمام الخديوي عتريس، كمواطن عشوائي، أمام رئيس دولة، فاقد الأهلية، أشار إليه عتريس أن يجلس بجواره، وأعطاه الشيشة، أخذ مسعود منها نفسا، ثم ردها إليه، بعدما أخرج دخانها الكثيف من فمه، وسعل بشدة، حتى كادت روحه أن تزهق، ألقى إليه عتريس ببرتقالة، تلقفها مسعود، قشرها بأصابعه المتسخة، والتهمها بشراهة، وعينيه على فم عتريس، الذي تنبعث كلماته، مع رزاز البرتقال، الذي يتطاير من فمه وأسنانه القوية، أشار إلي مسعود

ـ أنت عارف أنا سيبك تعيش في قصري ليه يا مسعود؟

ـ عشان قلبك الطيب يا خديوي..

ـ لا.. عشان خاطر أمك.. يا روح أمك

ضحك الجميع، فأعلن مسعود عن غضبه، احمر وجهه واتسعت عيناه، وكأنه يريد أن يلتهم عتريس بأسنانه، فأمه ليست مثاراً للسخرية، لاحظ عتريس، علامات الغضب على وجهه، فضحك بصوت عال، ونفخ دخان الشيشة، في سقف الغرفة.

ـ بلاش تفهمني غلط يا غشيم.. أمك دي كانت العصفورة.. اللي بتنقلي أخبار المنطقة...أيام ما كنت في الداخلية.. وأخذت مكافآت كثير بسببها.. الله يرحمها ويسامحها...

تحجرت الدمعة في عيون مسعود، حينما ذكره عتريس بأمه روايح، التي كانت تبيع الجرائد، في موقف سيارات حلوان، كانت على قدر كبير من الجمال، وخفة الظل وبشاشة الوجه، ولكن جمالها كان سببا في نكبتها، بعدما وقعت فريسة، في يد الحاج منصور الدكش، أحد أثرياء الصعيد، الذي كان يأتي إلى حلوان على فترات، وبمجرد أن يهبط أرض حلوان بطوله المتوسط وجسده الممتلئ، وجلبابه الصعيدي، وتلك العمامة التي تعلو رأسه، وتلك العصا المصنوعة من الأبنوس، في يده اليمنى، والمسبحة القصيرة التي لا تفارق أصابعه يفتش عنها بعيونه البنية الواسعة الشيء الوحيد الذي ورثه عنه مسعود وبمجرد أن يراها،

يشاغلها بكلماته الرقيقة، التي لا تتناسب مع ملامحه القوية، ووضعه الاجتماعي، يغدق عليها من هداياه الثمينة، وحينما فشل في الحصول على جسدها، بأسلوبه الناعم، تزوجها سراً، اختفت لفترة ليست بالطويلة، عاشت خلالها معه، في أحد أحياء القاهرة، حتى عادت في إحدى الليالي الشتوية، مختبئة بستار الليل، عرف الجميع قصتها، كانت مجرد نزوة، لذلك الرجل النذل، الذي أطفا شهوته في جسدها، وما أن ظهرت عليها علامات الحمل، حتى طلقها وطردها من الشقة، ثم اختفى نهائيا، لتعود روايح من جديد، إلى الرصيف مأوى المتشردين، تحمل في أحشائها، هذا الطفل المتشرد، الذي لم يرى أباه، ولو لمرة واحدة، ولم يتبقى منه، سوى اسمه المقترن بشهادة ميلاده. بعدها تزوجت عدة زيجات، لكنها كانت فريسة للمتعة، فكان الطلاق أسرع، من أن تنجب له أخا، يشد عضده، أفاق مسعود على صوت عتريس: أنت بتشتغل إيه يا مسعود؟

لم يرد مسعود، بل صمت كقبر، لقد عمل في كل شيء، عمل تباعا على (سرفيس)، باع الجرائد والمناديل، في إشارات المرور، لكن طموحه كان أكبر، من أن يحصل على عدة جنيهات، لا تكفي مصاريف، طعامه وعشقه للسجائر، فعمل في تجارة الحبوب المخدرة، حتى تم القبض عليه، وقضى في السجن عدة سنوات، كانت الأصعب في حياته. وبعدما خرج من السجن، قرر أن يقضي

بقيـة حياتـه فـي القصـر، منتظـرا طعامـه وسـجائره مـن شـربات

ـ عارف إنك لسه طالع من السجن، تشتغل معايا؟

أبـدى مسـعود رفضـه، لقـد قـرر ألا يعـود إلـى العمـل، فـي الأعمـال غيـر المشـروعة، حتـى لا يعـود إلـى السـجن مـن جديـد، يكفـي مـا لاقـاه مـن الـذل، لسـنوات كانـت الأصعـب فـي حياتـه.

ـ مـا تخافـش هتشـتغل هنـا، هتلـف علـى المقاطيـع اللـي سـاكنين القصر تلـم منهـم الإتاوة.

ـ إتاوة!

ـ أنـت عـارف القصـر ده فيـه كام أوده؟! ٣٦٥ أوده، أصـل الخديـوي توفيـق، كان رجـل أمزوجـي، هتلاقـي عيـال بتـوع برشـام، حشـيش، عُملـه، تزويـر، دعارة، شـحاتين، حراميـة وعاملين مخـازن لبضاعتهم المسـروقة، تأخـذ منهـم الإتـاوة، وفـى آخـر اليـوم، نلـم الحصيلـة هنـا، وتأخـذ يوميتـك

عتريـس يمتلـك سـطوة قويـة، علـى سـكان القصـر، ولا يسـتطيع أحـداً، أن يعتـرض علـى أوامـره، لأنـه يسـتطيع وبقسـوة، التصـدي لأي شـخص، تسـول لـه نفسـه التنمـر، أو رفـض دفـع الإتـاوة. يذكـر أن مجموعـة مـن اللصـوص، ممـن كانـوا يسـكنون القصـر، رفضـوا دفـع الإتـاوة، وتطاولـوا علـى رجـال عتريـس، فمـا كان مـن عتريـس، إلا أن أمـر رجالـه بعـدم التدخـل، وبـرز إليهـم بجسـده القـوي، فالتـف اللصـوص حولـه، ظنـا منهـم، أنهـا فرصـة قويـة، للتخلـص مـن

عتريس المغرور، والاستيلاء على القصر، لكنه استطاع بمفرده، أن يدخل معهم في مشاجرة طاحنة، انتهت بأن طردهم من القصر، واستولى على بضائعهم، ومن يومها، لم يستطع أحدا، أن يفكر في الخروج عليه، أو الاعتراض على أوامره.

هز مسعود رأسه بالموافقة، فأشار إليه عتريس، أن يبدأ في مباشرة عمله، وطلب من نوال، أن ترافقه في أولى جولاته الصباحية، على أن يقوما، بجولة أخرى في أخر النهار.

شعر مسعود بالنشوة تسري في جسده، حينما قامت نوال، وسحبته من يده وتحركت أمامه، فتصلب مكانه، يتأمل جسدها الأنثوي، تمنى أن يأخذها، إلى إحدى الغرف، فيذكرها بماضيها القذر، فجذبته من يده، فتصلب جسده، فضربته على كتفه

ـ ما تتحرك قدامي يا روح أمك..

فضحك الخديوي عتريس ورجاله، من منظر مسعود، الذي يبدو بين يديها، كخروف العيد، وعاد عتريس، ليستكمل سرد حكاياته المزيفة، على مسامع رجاله، لينسج حول شخصيته أساطير، تروى بين رواد القصر، فيزيد الرعب في قلوبهم.

• • •

١٤

الشمس تتجه نحو الغروب، لكنها ما زالت تنشر أشعتها على الأرض، رغم البرودة الشديدة، ورزاز المطر المتساقط على استحياء، شعرت شربات، بدوار يضرب رأسها، فتوقفت أمام أحد المطاعم، نظرت إلى الفراخ المشوية، التي تثير الشهية، لكنها لم تحرك معدتها، التي أنهكها الجوع، بل تذكرت مسعود، الذي ينتظر أية لقمة، لتسد جوعه، أخرجت نقودها، التي جمعتها طوال اليوم، فاكتشفت أن ما معها، يكفي بالكاد لشراء وجبة واحدة، فأخرجتها عن طيب خاطر، واشترت بما تبقى علبة سجائر، من النوع الذي يفضله مسعود.

عادت شربات، إلى تلك الحارة الضيقة، التي تقترب بيوتها، من بعضها البعض، حتى كادت أن تلتصق كتوائم سيامية، فلا تستطيع التفرقة بين البيوت، بجدرانها وأبوابها ونوافذها، حتى سكانها متشابهون إلى حد كبير، في ملامح الجسد وعلامات الفقر والتشرد.

اصطدمت بصديقتها صباح، التي يبدو عليها الإرهاق الشديد، جسدها هزيل، وجهها أصفر كالليمون، كادت أن تسقط من فرط التعب، وقفا بالقرب من بيتها، تحسست شربات وجه صباح،

وهمست في أذنها، سألتها عن موعد الدورة الشهرية، فصمتت صباح كدهر، ونزلت من عيونها دمعتين، حاولت أن ترد، لكن الكلمات وقفت في حلقها، فنطقتها بصعوبة

ـ الدورة متأخرة عليا أديلها شهرين

ضربت شربات على صدرها، وشهقت شهقة قوية، أشعرت صباح بالرعب، فتلفتت حولها، ووضعت يدها على فم شربات، وهرعت الدموع من عيونها، لكن شربات لم تستطع الصمت، بل غلت الدماء في عروقها، فاحمر وجهها، وقالت في غضب، ممزوج بشفقة على صديقة عمرها صباح

ـ سلمتيله نفسك يا بنت الكلب...؟

قالت صباح بصوت مرتعش، وكادت أن تقبل يد شربات

ـ وطي صوتك أبوس أيدك؟

أمرتها شربات، أن تذهب معها في الصباح، إلى مستشفى حلوان، لتوقيع الكشف الطبي عليها، ثم سارت معها، حتى أدخلتها إلى ذلك الجحر، الذي تعيش فيه مع أبيها، الذي تجاوز الستون عاما، وأقعده المرض، ومنعه أن يخرج إلى العمل، فتكفلت به وحيدته صباح. دخلت صباح على والدها، الراقد في سريره، يغطي جسده بغطاء ثقيل، لكنه لم يمنع البرد من التسلل إلى جسده الواهن، الذي ينتفض مع السعال الشديد.

ـ أنتي رجعت يا صباح.. ما قولت لك ارتاحي النهارده يا بنتي.. شكلك تعبانه..

ألقت صباح جسدها بجواره على السرير، وتكورت في مواجهة الحائط، فمد يده ومسح على رأسها بعطف، ورتل بعضا من آيات القران الكريم.

دخلت شربات ذلك البيت المتهالك، الذي ينتظر زلزال، بدرجة واحدة بمقياس ريختر، ليستوي بالأرض، فوجدت أمها راقدة في سريرها، تشد على جسدها النحيف لحاف كبير، صبغ الطين لونه الأبيض، فتحول إلى اللون الأسود، سيدة قصير القامة، سليطة اللسان، لا يذكر أمامها مسعود، إلا وانهالت عليه بالشتائم، فتنعته دائما بابن العاهرة، ترقد أمام تلفاز عتيق، كبير الحجم، من النوع الأبيض والأسود، غطى التراب شاشته، وتراكم بداخله، حتى صار مرتعاً للحشرات، مشدودة لأحد المسلسلات القديمة، التي شاهدتها عشرات المرات، ولكن انجذابها إليه، يشعرك أنها تشاهده للمرة الأولى، فلم تشعر بشربات التي دخلت غرفتها، وألقت بكرتونة المناديل على سريرها، اتجهت إلى دولاب ملابسها، تطلعت إلى وجهها في المرآة، فرأت آثار التعب تكسو ملامحها، خلعت عباءتها السوداء، والطرحة التي تغطى رأسها، وأخرجت عباءة بنفسجية اللون، مشطت شعرها على عجل، ارتدت عباءة، ثم لفت طرحة، بنفس لون العباءة فوق رأسها ورقبتها، تحسست جسدها الفائر، شعرت بالرضا، حينما رأت شربات أخرى، غير شربات بائعة المناديل، التي تبدو كالمتشردين. تساءلت متى

سيتحرك مسعود، ليحقق حلمها، لقد رضي بالقعود في القصر، تحت رحمة الخديوي عتريس، ينتظر أي لقمة تلقى إليه، فالأيام تمر بلا جدوى، ومسعود لم يقدم دليلا واحدا، على رغبته فيها، فالبنات الذين في نفس عمرها، قد تزوجن، وصار لهن أطفالا، وهي التي تفوقهن جمالا وفتنة، ما زالت تنتظر مسعود، الذي لم يأت بعد.

خرجت من غرفتها، على أطراف أصابعها، وأمها لا تزال راقدة في سريرها أمام التلفاز، ظنت شربات، أنها لم تشعر بها حينما دخلت، ولا حينما تسللت للخروج، لكنها التفتت نحوها فجأة، فارتبكت شربات، وسقط كيس الطعام من يدها، فالتقطته من جديد.

- ريحه على فين كده يا بت.. أتهدي شويه.. أنتي إيه.. ما بتتعبيش!؟

- ريحه أزور البت صباح عيانه اوي

- صباح.. وحياة أمك.. أنتي ريحه عند الصايع.. اللي مضيعه شقاكي وتعبك عليه

- ما تنسيش يمه.. إن مسعود ابن خالتي..

- خالة الشؤم والندامة.. لا أختي ولا أعرفها.. الخايبه اللي ضيعت شبابها ومالها على الرجالة.. وفي الأخر إتلمت على عيل صايع.. لهف اللي حيلتها وخلع..

ـ طـول عمـرك كنتـي بتغيـري منهـا يـا إنصـاف... عشـان كانـت مدندشـة وبتحـب الضحـك والهـزار

ـ أخرسـي قطـع لسـانك، أنـا لـو ليـا فـي الدندشـة يـا روح أمـك.. مكنتش فضلـت مـن غيـر جـواز بعـد أبوكـي.. عشـان أربيكـي.. مـش أتنقـل بين سـراير الرجالـة.. وأرمـي أبنـي علـى الرصيـف يـأكل جتته

شـعرت شـربات، أنهـا قـد قسـت علـى أمهـا، فاقتربـت منهـا، وقبلـت رأسـها

ـ معلـش يمـه حقـك عليـا.. بـس مسـعود غلبـان وطيـب.. وملـوش ذنـب فـي كل ده

لـم تلتفـت الأم إلـى كلماتهـا، التـي تدافـع بهـا دائمـا عـن مسـعود، بـل رمقـت ذلـك الكيـس، الـذي تحملـه شـربات، واشـتمت منـه رائحـة الفـراخ، فصرخـت فـي وجههـا

ـ وكمـان شـريالـه فـراخ.. إلهـي يطفحـه بالسـم الهـاري.. غـوري يـا بنـت الكلـب مـن وشـي..

هرعـت شـربات إلـى خـارج البيـت، وعـاودت الأم، مشـاهدة المسلسـل مـن جديـد، شـدت اللحـاف علـى جسـدها البـارد، أخرجـت سـيجارة مـن تحـت الوسـادة، أشـعلتها، وأطلقـت دخانهـا فـي الهـواء.

أسـرعت شـربات الخطـى نحـو القصـر، تحمـل الطعـام إلـى مسـعود، ليسـد جوعـه، وفـي أثنـاء سـيرها، أخـذت تتسـاءل، عـن سـر تعلقهـا بمسـعود، فقيـر الحـال، الضائـع بـلا عمـل ولا سـكن، رغـم إنـه ابـن

خالتها، غير أن أمها، قد منعته من دخول البيت، بسبب العداء القديم، بين الأختين، مسعود ذلك المتشرد، الذي خطف قلبها، هل تحبه لكونه يحبها؟ فالجميع يعشقها، ويتمنى تراب قدميها، إن لمسعود جاذبية خاصة، فهي التي تشتهي قربه، تريده رجلها، وفتوتها في شوارع المدينة، التي أصبحت ميدانا، لحرب يومية، من أجل لقمة العيش، تريده سكنا، فحوائط من الأحجار، لا تكف، تريده حضنا، لقد تعبت من حضن وسادتها.. إنها تريده مسعود فقط، وبدون إبداء الأسباب.

• • •

٥

الفرحة تجتاح قلب مسعود، وهو يقتحم غرف القصر ليجمع الإتاوات، فما أن يعرفوا، إنه من رجال عتريس، حتى يدفعون له بلا تردد، وكانت نوال مصدر تلك الثقة، وجودها معه، سهل مأموريته الصباحية، بنجاح كبير، فأدهش الخديوي عتريس، في قدرته على جمع الإتاوة، ألقى تحت أقدام الخديوي، أموال من عملات مختلفة، عشرات الزجاجات من الخمر، وعلب سجائر، ولفائف من البانجو، وحبوب مخدرة، ومشغولات وجنيهات ذهبية، وملابس، طلب عتريس منهما، أن يستريحا لعدة ساعات، على أن يعاودا، عمل جولة مسائية. كانت نوال تشعر بالنشوة، وهي برفقة مسعود، تنظر إلى جسده المفتول، بشهوة واضحة، تسحبه من يديه، وتلامس ذراعيه، فيشعر بكهرباء تسري في جسده.
حكت له عن حياتها الضائعة، بداخل القصر، صرحت عن رغبتها في الهروب، فهى ما زالت تفتش، عن ذلك الرجل، الذي يمتلكها، فتكون له جارية، تعيش تحت قدميه، تنام بين أحضانه، تتمنى أن يصبح لها غرفة، تغلق عليها حينما يأتي المساء، وأطفالا ينادونها بأمي، لقد كرهت حياة العهر والرزيلة، بعدما مر العمر بلا جدوى، ندمت على هروبها، من بيت أهلها، لعنت ذلك النذل،

الذي ضيعت حياتها من أجله، لم يقدر تضحياتها، تركها في مهب الريح، بعدما أفرغ شهوته فيها.

ـ طيب ما ترجعي لأهلك...

ـ هو اللي بيهرب من بيت أهله.. يقدر يرجعه تاني!

شعر مسعود، بكم الحزن الذي يطل من كلماتها، فبادلها حزنها بحزن، فحكايته لا تختلف عن حكايتها، رجل بلا أهل، مقطوع من شجرة البشر، ملقى على رصيف الوحدة والحرمان

كانا قد اقتربا من سرداب القصر، حيث يقف أربعة رجال، ثلاثة منهم يحفرون في مدخله، بينما يقف رابعهم، يخطط لهم موقع الحفر، وكأنه مرشدهم. اقترب مسعود منهم، ليطالبهم بالإتاوة، لكن نوال سحبته من ذراعه بعيدا عنهم.

ـ ملناش دعوة بدول.. دول حسابهم مع عتريس

اقتربا من إحدى الغرف، فسمعا صوت ضحكات ماجنة، وصوت موسيقى صاخبة، أشارت إليه، أن يفتح الباب، فأزاحه بقوة، فانفتح الباب على مصراعيه، ودخل إلى وسط الغرفة، فوجد فتيات شبه عاريات، وشباب يرقصن معهن، على أنغام موسيقى صاخبة، والجميع في حالة من الثمالة، من فرط شرب الخمور والمخدرات، وفى أحد أركان الغرفة، رجل يضاجع سيدة، عارية تماما، وهما في قمة النشوة، اقشعر جسده، وتجمدت مفاصله، وهرول إلى خارج الغرفة، ووقف بجوار الباب، أسند ظهره على

الحائط، وجسده يتصبب عرقا، فخرج إليه أحدهم، أعطاه بعض المال، وأغلق الباب في وجهه.

طفر الدم إلى وجه مسعود، واجتاحت النشوة جسده، تناثرت قطرات العرق على جسده، تلفتت نوال حولها في حذر، وحينما اطمأنت، أنها في مأمن، من عيون عتريس ورجاله، تلبست دور العاهرة، الذي تتقنه ببراعة، اقتربت من مسعود، تحسست جسده بنشوة، احتضنته بقوة، فلم يشعر، إلا وهو يبادلها الأحضان والقبلات، يفرغ فيها رغبته المكبوتة، ألصقها بالجدار، في نشوة الجوعان، الذي حصل على وجبة مجانية، تحسس جسدها الفائر، الذي استجاب لنداء جسده، فبادله رغبته برغبة أشد وطأة.

ظل هكذا لعدة دقائق، حتى أفاق على صوت شربات، تنادي عليه، فالتفت نحوها في ذعر، انتفض كالملسوع، تاركا جسد نوال، بجوار الحائط، اقترب من شربات في خوف، كمن رأته أمه، بين أحضان ابنة الجيران، نظرت إليه باحتقار شديد، بصقت على وجهه، وألقت بأكياس الطعام على الأرض، وهرولت نحو باب القصر، تتمتم بعبارات سباب غير واضحة

-... كنت عارفه إنك ابن كلب وسخ....

هرع خلفها، محاولا اللحاق بها، لكنها كانت الأسرع، نحو باب القصر، صدمها ذلك المشهد المخزي، شعرت بالاشمئزاز، من تصرفه المشين، مسعود الذي ظنت إنه ما زال نقيا، صادقا في

حبـه، متمسـكا بهـا، رغـم ظروفـه القاسـية، لقـد كرهتـه، وكرهـت قلبهـا الـذي عشـقه.

اسـتطاع اللحـاق بهـا عنـد بـاب القصـر، أمسـك بيدهـا، فالتفتـت نحـوه، والتقـت أعينهمـا، فوجـد الدمـوع تغـرق خديهـا، أدرك فـي تلـك اللحظـة، أن شـربات تـذوب فيـه عشـقا، أدرك مـدى الخطـأ الفـادح، الـذي ارتكبـه فـي حقهـا، تـرك يدهـا، فأسـرعت فـي الخـروج، ظـل يراقبهـا بحسـرة، حتـى اختفـت عـن عيونـه.

• • •

٦

ظل مسعود طوال الليل، يتقلب في فراشه الخشن، على أرضية الغرفة، كانت ضربات لصوص الآثار، الذين ينقبون طوال الليل، في مدخل السرداب، لا تضرب الأرض، بل تضرب رأسه، فتسبب له صداعا شديدا، فلم يستطع النوم، رغم استمتاعه بصوت أم كلثوم، الذي ينبعث من مذياع سكر، في الغرفة المجاورة، تذكر نظرات شربات، تلك السهام النارية التي أحرقت جسده، وتركته يعاني من تأنيب الضمير، لماذا فعل بها ذلك، تلك البريئة التي تعشقه بصدق، تأمل تلك اللفة الممتلئة بالطعام، خشي أن يفتحها، فتنفجر في وجهه.

كيف يأكل طعامها، الممزوج بقطرات عرقها، بعدما خانها مع تلك العاهرة نوال، لم يستطع مقاومة حرمانه، أمام جسدها المشتعل، لماذا لم يحاول، أن يرضي رغباته تلك مع شربات، رغم أنها تفوق نوال جمالا وفتنة، أنه الحظ السيئ، الذي يلازمه كظله، هو الذي أفسد علاقته بشربات، التي أصبح عشقها له، واضحا كالشمس.

توسل إلى الله، أن يأتي النهار بسرعة، حتى يراها ويحدق في عينيها، يقبل رأسها ويديها، يطلب منها أن تصفح عنه، أن تقبل أن

يكون زوجها، ولكن كيف! وظروفه لا تخفى عليها.

ابتسم كثيرا، بعدما فتح اللفة الممتلئة بالطعام، وفرح أكثر حينما وجد علبة السجائر، أخرج سيجارة وأشعلها، نفخ دخانها في الهواء البارد، اشتم رائحة الطعام، فبلع ريقه من الجوع، تخيل شربات تجلس أمامه، تضع الطعام في فمه، فيتحسس يدها، ويقبل خدها الأبيض الناعم، ويمسح على شعرها الأسود الطويل، يطعمها بيده، يطلب منها قبلة فتعطيه ألفا، يطلب منها أن تعيش بجواره، إلى آخر الأزمان.

لكنه أفاق، على صوت صراخ وبكاء، بنات جارته أم سكر، سمعها تصرخ فيهن، أن يخلدن إلى النوم، فليس في البيت طعاما ليسد جوعهن، فجمع الطعام من أمامه، وطرق باب غرفتهم برفق، نادى على سكر، فخرجت أم سكر، حدقت في عيونه، وصدرها يعلو ويهبط، وكأنها تريد أن تفترسه، فتراجع عدة خطوات، وأعطاها كيس الطعام

ـ الأكل ده فضل مني... أديه لسكر وأخواتها يتعشوا بيه.

ما أن سمع البنات كلمة طعام، حتى تدافعن نحو مسعود، وخطفن الطعام من يده، وافترشن أرضية الغرفة، وشرعن يلتهمنه بشراهة، وأم سكر واقفة أمام مسعود، تتصاعد أنفاسها، تحدق في عينيه، مدت يدها، وجذبته من يده نحو الداخل

تعالى أعملك شاي يدفيك... الجو برد..

رغم أن سكر، كانت تشارك أخوتها، في تناول الطعام، لكنها كانت تتابع، حوار أمها مع مسعود، وحركاتها التي تدل على رغبتها في مسعود، لاحظ مسعود، أن سكر تنظر إلى أمها بغضب، فأنهى الحوار وانصرف من أمامها، وعاد إلى غرفته، وصوت المذياع، ينبعث منه صوت أم كلثوم تغني.. هذه ليلتي.

• • •

١٧

رقدت شربات في فراشها، تحتضن وسادتها، تبكي بصوت مكتوم، خشية أن تسمع أمها، صوت بكاءها، فتشمت فيها، وتعزف على أوتار قلبها، موال التقريع والشتيمة، فلطالما حذرتها من التعلق بمسعود، الضائع بلا مال ولا عمل ولا سكن، فتعيش معه حياة البؤساء، وتنجب أطفال شوارع أو بلطجية أو قطاع طرق، أو ضحايا للمجتمع الفاسد، الذي يعيشون فيه، فصاروا جزءا منه، رغما عنهم، اكتسبوا صفاته وتخلقوا بأخلاقه، فلن يخرج من بينهم نبيا أو قديسا، فمزرعة الفساد لن تطرح إلا فسادا.

رقدت شربات تتابع شاشة التلفاز، التي تعرض فيلما رومانسيا، تتخيل مسعود يقف أمامها، يطلب منها السماح، يرفع الغطاء عن جسدها البارد، يحتضنها برفق، يعصر جسدها الطري، فتقبل اعتذاره، وتأخذه إلى عالمها الصغير، وغرفتها الصغيرة، وحلمها الصغير، بأن يكون معها، فهي على استعداد، أن تبيع الدنيا، من أجل أن تكون معه.

تحسست جسدها الفائر، قارنت بينه، وبين جسد العاهرة نوال، التي مارست الرزيلة، مع كل رجل قابلته في حياتها، ولم تترك لها مسعود النقي، حدثت نفسها، هل تناولت نوال معه وجبة

العشاء، التي دفعت فيها كل ما تملك، وقضيا معا سهرة حمراء؟ أم أنه ما زال بجوعه، أفقدته الصدمة، رغبته في استكمال تلك الليلة، وسدت شهيته عن الطعام، هل ستذهب كعادتها كل صباح، بطعام الإفطار!

لابد أن تحافظ على كرامتها، لابد أن تشعره، أنها ليست سهلة، ستذيقه الفراق ومرارة البعد، ستكون صعبة المنال، ستغيب عنه، حتى ترى الاشتياق في عينيه، فلو عشقها حقا، ما باع نفسه لتلك العاهرة، كم حاولت شربات، أن تلهب مشاعره نحوها، ليروي عطش جسدها، لكنه عاش دور الشريف النقي.

ـ يا لك من مراوغ يا مسعود.. لن تجد شربات بعد اليوم.. أن كنت تريدها فتش عنها

لعنت عشقها لمسعود، وقلبها الذي ترك الجميع من أجله، أغلقت عينيها، مع ظهور كلمة النهاية، على شاشة التلفاز، فاستسلمت لنوم عميق، أهداه لها شقائها طوال اليوم.

• • •

١٨

خيوط الشمس الذهبية، تلقي بأشعتها الشتوية الباردة، على ذلك القصر العتيق المتهالك، بينما الصحفية هالة والمصور محسن، اللذان يعملان في جريدة المستقبل، يقتربان من أسوار القصر. اقترب منهما بعض أهالي المنطقة، منهم الحاج محمد، صاحب مقهى بمحيط القصر

- رايحين فين؟ القصر مليان بلطجية، هيضربوكم وياخدوا منكم الكاميرا.

كانت هذه الكلمات، مبعث تحفيز لها على اقتحام القصر، لمعرفة ما آل إليه حاله، تفاوضت معه هالة، ليصطحبها في الجولة، لكونه من أبناء المنطقة، إلا أنه نصحها، بالتصوير من خارج القصر، اقتربت هالة من بائع سندوتشات بجوار المقهى، عدل من هيئته، وأشار إلى زبائنه، أن يكفوا عن الضجيج

- ده قصر قديم قوي بتاع حد كبير، بس الناس نهبته بعد الثورة، وأخذوا كل حاجة، خلي بالك في بلطجية.. بييجوا بالليل.. متتأخريش، دول بياخدوا مخدرات وبيجيبوا بنات.

اقتربت هالة من أحد الأهالي، وسألته عن دور الحكومة

- مفيش حكومة ولا حاجة... القصر مسكون.. ومليان بلطجية..

وإحنا مش بنخرج من بيوتنا بعد المغرب.. عشان العفاريت والجن... بينزلوا في الشارع ويؤذوا الناس

شعر محسن بالرعب يزلزل قلبه، فطلب منها، أن يكتفوا بالتصوير، من خارج القصر، فابتسمت في محاولة لامتصاص خوفه، حاولت أن تطمئنه، وتبعد عنه شبح الخرافات.

- إيه يا محسن هو في عفاريت بالنهار!

التقط بعض الصور من خارج القصر، وأسترعى انتباهها، عبارة (ديوان العفاريت) المكتوبة على واجهة القصر، ونجمة داوود المرسومة على جدرانه، في مدخل القصر، دفعتها مشاهد بعض زجاجات الخمر، إلى دخول الطابق الأرضي، لتجد ملابس داخلية لفتيات، وسرنجات لحقن مخدرة، لاحظت تكرار كلمة عتريس، المكتوبة على حوائط القصر، من الداخل بصورة عشوائية، مما يشير إلى الحالة المتردية، التي وصل إليها القصر، الذي عاصر ثلاثة قرون، وأبى أن ينهار، رغم المهازل التي مر بها، على مدار تاريخه، بخلاف الأحدث التاريخية الهامة، التي عاصرتها أروقته.

اقتربت هالة من أم سكر، الواقفة أمام حجرتها، وحولها بناتها الخمس، سألتها عن سبب تواجدهم، في هذا القصر المهجور، فأخبرتها بأن الشقة، التي كانوا يعيشون تحت سقفها، تصدعت جدرانها، فطردهم صاحب البناية، عاشوا فترة في مخيمات

الإيـواء، لكنهـم لـم يشـعروا بالأمـان، فانتقلـوا إلـى هـذه الغرفـة. اقتربـت هالـة مـن سكر، التـي ترتـدي المريلـة الكحلـي، وتحمـل حقيبة مدرسـية قديمـة، سـألتها عـن اسـمها، لكـن أم سـكر أجابتهـا بسـرعة، وأشـارت إلـى ابنتهـا سـكر، وكأنهـا تفتخـر بهـا

ـ دي بنتـي سـكر.. الأولـى علـى مـدارس حلـوان فـي الابتدائيـة.. ودلوقتـي فـي أولـى إعـدادي

تركتهـا هالـة، وعـادت إلـى سكر وسـألتها، مـاذا تعـرف عـن القصـر، فأجابـت بطريقـة موسـوعية

ـ ده قصـر الخديـوي توفيـق، وسـكنته الأميـرة عيـن الحيـاة، مـرات السـلطان حسـين كامـل، بعـد كـده بقـى مستشـفى حلـوان العـام، وبعـد نقلهـا للمبنـي الجديـد، القصـر بقـى مهجـور.

طلبـت هالـة مـن محسـن، أن يلتقـط لهـا عـدة صـور، ثـم تركتهـم، وصعـدت إلـى الطابـق الأول العلـوي، فوجـدت مـا يزيـد عـن أثنـى عشـر غرفـة، إلا أنهـا أسـوأ حـالا مـن واجهـة القصـر، مليئـة بالقمامـة ومتآكلـة جدرانهـا، صعـدت الطابـق الثانـي، فوجدتـه أسـوء حـالا، عـن باقـي أنحـاء القصـر، ممـر طويـل، تترامـى علـى يمينـه ويسـاره، كميـات هائلـة مـن القمامـة، وزجاجـات الأدويـة المخـدرة. تعمقـت بداخـل أروقـة القصـر، وخلفهـا محسـن يلتقـط عشـرات الصـور، ولكنهمـا توقفـا فجـأة، علـى صـوت عتريـس، يصـرخ فـي رجالـه

ـ هاتولي أولاد الكلب دول... وهاتوا الكاميرا اللي معاهم..

تسمر محسن في مكانه، بل حاول الهروب، لكن هالة تشبثت به، ورجال عتريس يحيطون بهما. استيقظ مسعود على صوت عتريس، فانتفض في فراشه، هرع نحو غرفة عتريس، فوجد الصحفية واقفة بين يديه، ونوال تفتش ملابسها، أخذت ما معها من أموال ومشغولات ذهبية، والكاميرا التي مع محسن.

ـ القصر ده بتاعي.. وعيب أوي لما تدخلي بدون إذني..

ـ قصرك أزاي؟ أنت مجنون.. ده قصر الخديوي توفيق

ـ أنا الخديوي.. عتريس.. وغلطة تاني أدفنك هنا..

صفعتها نوال على وجهها، فتراجعت هالة عدة خطوات إلى الخلف، فاصطدمت بمسعود، فابتسم في وجهها، فكلمة صحفية، ذكرته بأمه بائعة الجرائد، كان يجلس بجوارها، فيتصفح الجرائد والمجلات، يشاهد صور المشاهير، ويقرأ أخبارهم. نظرات مسعود طمأنتها، فشعرت بالأمان في وجوده. اقترب مسعود من عتريس، وهمس في أذنه، فرمق هالة بعيونه الواسعة، أدار كلمات مسعود في رأسه، سرح قليلا، ثم أشار إلى نوال، أن تعيد إليها أموالها وذهبها، وأمرها أن تتحفظ على آلة التصوير. رمق محسن آلته في حزن، وأراد أن يصرخ في عتريس، أو بالأصح يتوسل إليه، أن يعيدها إليه، لاحظ مسعود، نظرات محسن الحزينة، فأشار إليه أن يهدأ ويطمئن.

أشار الخديوي لمسعود أن يصطحبهما إلى خارج القصر، شعرت

هالـة بالارتيـاح والطمأنينـة، ومسـعود يسـير بجوارهـا، حتـى خرجـوا مـن بـاب القصـر. بعدمـا التقطـت عـدة صـور للقصـر، بعدسـة هاتفهـا النقـال، عوضـا عـن تلـك الصـور، التـي تمـت مصادرتهـا، والتقطـت عـدة صـور لسـكر، ابتسـمت هالـة وهـي تـرى علامـات الإعجـاب فـي عيـن مسـعود، مـدت يدهـا فـي حقيبتهـا، وأعطتـه الـكارت الخـاص ده الكارت بتاعي.. لو احتجت أي حاجة..

أخـذه منهـا، قـرأ اسـمها، وأبتسـم فـي سـعادة، ترجـاه محسـن، أن يعيـد إليـه آلـة التصويـر، فطمأنـه إنـه سـيحاول إعادتهـا فـي أقـرب فرصـة، ودعهمـا مسـعود أمـام بـاب القصـر، حتـى اختفيـا وسـط الزحـام.

• • •

٩

وقف مسعود على باب القصر، متابعا بائع الفول والفلافل، شعر بالجوع يضرب معدته، التي تحركت مع رائحة الطعام، ومشهد الزحام حول عربة الفول، وتلك الأفواه التي تطحنه بلا رحمة، فتذكر شربات، وإفطارها الذي افتقده، اتجه نحو المقهى، فوجد أبوسكر جالسا، يدخن الشيشة، ويبدو عليه ملامحه علامات الاضطراب.

فمنذ أن تم خصخصة المصنع، الذي كان يعمل فيه، واشتراه أحد رجال الأعمال، والذي قام بتسريح عماله، وكان من بينهم أبوسكر، الذي صار بلا عمل، فاضطر أن يشتري، بمكافأة نهاية الخدمة توكتوك، يظل يعمل عليه طوال النهار، وحينما يأتي المساء، يرقد بداخله حتى الصباح، كان ذلك الحدث، كفيلا بان يغير من ملامح شخصيته، فأصبح منطويا بعض الشيء، متحفظا في علاقاته مع الآخرين، لا يطيق زوجته ولا بناته، شعر بالانكسار أمامهن، فهرب إلى توكتوكه وسيجارته وحبات المخدرات التي أدمنها، فصارت جزءا من عالمه. جلس مسعود بجواره، فسحب أبوسكر، كوب الشاي الذي أمامه، أرتشف منه عدة رشفات متتالية، أظهرت ملامح وجهه، ورأسه النحيف، وجسده الذي يشبه جسد

ابنتـه سـكر. طلـب مسـعود مـن صبـي المقهـى، أن يشـترى لـه طعـام الإفطـار، فنظـر إليـه فـي خـوف، كونـه مـن هـؤلاء المتشـردين، الذيـن يعيشـون بداخـل القصـر، تذكـر صبـي المقهـى، قصـص العفاريـت التـي تسـكنه، فاقتـرب مـن أذن مسـعود وسـأله فـي خـوف

ـ هو القصر ده فيه عفاريت؟!

نظـر إليـه مسـعود بغيـظ، وأشـار إليـه، أن يسـرع فـي إحضـار الطعام، وعمـل كوبـا مـن الشـاي، فانصرف مسـرعا، خوفا من نظرات مسـعود العدوانيـة. عـاد الصبـي، حامـلا الطعـام وكـوب الشـاي السـاخن، فـرح مسـعود بتلـك الوجبـة الصباحيـة، التـي ذكرتـه بشـربات، أخـرج عـدة جنيهـات، وأعطاهـا للصبـي، فانصـرف صارخـا بكلمتـه المشـهورة (أيـوه جـاي)، أشـار مسـعود إلـى أبوسـكر، أن يشـاركه الطعـام

بسم الله يا أبو سكر

التفـت إليـه ولـم يجبـه، سـحب مفاتيـح التوكتـوك، مـن فـوق الطاولـة، وتحـرك نحـو التوكتـوك، أداره وانصـرف بسـرعة فائقة، مخلفـا وراءه دخانـا كثيفـا، رمقـه مسـعود بنظـرة شـفقة، وهـو ينطلـق بالتوكتـوك المكتـوب علـى ظهـره (سـكر)، وانفـرد بطعـام الإفطـار فـي متعـة.

فجـأة، سـمع مسـعود صـوت صـراخ لسـيدة شـابة، متوسـطة الطـول، خمريـة البشـرة، محتشـمة الملابـس، ترتـدي حجابـا قصيـرا، ويبـدو مـن هيئتهـا أنهـا موظفـة، وشـاهد شـاب طويـل القامـة نحيـل الجسـد، يجـري باتجـاه القصـر، دخـل مـن بابـه واختفـى بداخلـه، تجمـع الأهالي

حولها، ومن بينهم مسعود، الذي أنصت إليها، وهي تقص عليهم حكايتها باكية

ـ لسه خارجة من المدرسة، ومروحه شقتي، في العمارة اللي في أخر الشارع، وفجأة ظهر قدامي حرامي خطف شنطتي، فيها كل فلوسي، وجري ودخل الخرابة دي..

وقف الجميع عاجزون، فلن يستطيع أحدا أن يدخل القصر، ليعيد إليها حقيبتها، حتى في وضح النهار، بادرها الحاج محمد صاحب ا لمقهى

ـ ربنا يعوض عليكي، القصر مليان بلطجية، واللي هيدخله مش هيخرج منه سليم، حسبنا الله ونعم الوكيل

اقترب منها مسعود، رق قلبه لدموعها التي أحرقته، فتلك الحادثة مأساوية بالفعل، أن تقضي الشهر كاملا، بلا راتبها، الذي لا يكاد يكف متطلباتها، والذي تتقاضاه نظير التعب والإرهاق، مع هؤلاء الشرذمة من التلاميذ، الذين يحرقون الأعصاب، رق له حالها، طلب منها أن تجلس على المقهى، طلب لها كوبا من الشاي، حتى يقوم بعمل محاولة، لاسترداد حقيبتها، فتوسلت إليه أن يعيدها إليها. طلب منه الجميع، توخي الحذر، ودعوا الله، أن يستطيع النجاح في مهمته.

دخل مسعود القصر، يفتش في أروقته، لقد استطاع أن يلمح ذلك النشال، الذي يرتدي قميص أحمر كروهات، وبنطال جينز أزرق

باهت، تذكر أنه مر على كل غرف القصر، وعرف أين يسكن النشالين، إنهم يتخذون، أحد غرف الطابق الثالث، مقرا لهم.
بمجرد أن دخل القصر، حتى رأى سكر تقف أمامه، والتي رأت النشال، يهرول بالحقيبة إلى داخل القصر، أشارت بإصبعها النحيف، نحو الطابق الثالث، فهرول نحوه مسعود، ضرب بعينيه، بداخل كل غرفه، فمعظم الغرف، روادها ما زالوا نائمين، انشرح قلبه حينما، لمح الحقيبة على الأرض، التقطها وفتش جيوبها، فوجدها خاوية، يبدو أن النشال، قد أفرغ كل محتوياتها، وألقاها في مدخل الدور، سمع صوت ضحكات عالية، نظر في أحد الغرف، فوجد ثلاثة من النشالين، يتوسطهم النشال الذي سرق الحقيبة، لم يمهله حتى يلتقط أنفاسه، اقتحم الغرفة، وسحبه من رقبته، ولوي ذراعه، وطوق عنقه، وهدده بأنه سيقوده إلى عتريس، ليقطع رأسه، إذا لم يخرج، ما بداخل الحقيبة في هدوء، حاول أحدهم تخليص زميله من قبضة مسعود، فركله مسعود بقدمه فألصقه بالجدار، زمجر النشال، محاولا التخلص من ذراع مسعود، التي تكاد أن تزهق روحه، وزميله يهدد مسعود، إنه سيشكوه إلى عتريس، الذي سيعاقبه، لأنه على علم بعملهم، ويأخذ منهم إتاوة، نظير وجودهم بداخل القصر، فترك مسعود رقبته، لكنه ظل يلوي ذراعه، وقال في سخرية
ـ أدفع، وبعدين اشتكي يا روح أمك

أعطـوه كل مـا كان بداخـل الحقيبـة، وهـم علـى يقيـن، أن عتريـس سـيأخذ حقهـم مـن مسـعود، الـذي عرقـل عملهـم، ألقـى مسـعود بالنشـال، فتهـاوى علـى الأرض، وضـع مسـعود محتويـات الحقيبـة بداخلهـا، وتركهم يتناقشـون بصـوت عـال، بضـرورة لقـاء الخديـوي، للشـكوى إليـه مـن مسـعود.

خـرج مسـعود مـن القصـر، يحمـل الحقيبـة، فهرولـت السـيدة نحـوه، وقلبهـا يزغـرد مـن الفرحـة، وودت لـو احتضنتـه، والأهالـي يهللـون بعـودة الحـق إلـى أصحابـه، شـعر مسـعود، إنـه أصبـح بطـل قومـي، لـدى أهالـي المنطقـة، الذيـن سـألوه عـن اسـمه، فأخبرهـم أن اسـمه مسـعود.

• • •

١٠

وقفت هالة أمام رئيس التحرير، تروي له ما حدث لها بداخل القصر، عن تلك التجاوزات التي تحدث فيه، عن تجاهل الحكومة، وخصوصا وزارة الداخلية، لكل تلك المخالفات، عن تجاهل وزارة الآثار، لذلك الأثر التاريخي، الذي يمثل مرحلة تاريخية هامة، من تاريخ مصر الحديث، عن الإهمال الذي أصاب قصر عين الحياة، الذي كان يوما ما، تحفة معمارية لا نظير لها في أوروبا. حاول رئيس التحرير، أن يهدئ من روعها، فهذا ليس الأثر الوحيد، الذي تتجاهله الحكومة، فهناك المئات من المباني الأثرية، التي لو اهتمت بها الدولة، لتحولت إلى مزارات سياحية، تدر دخلا إلى خزينة الدولة، وأن ما يحدث، يبدو متعمدا، لطمس حقبة تاريخية هامة، من تاريخ مصر الحديث. لكنه حذرها من معاودة التجربة، ودخول ذلك القصر من جديد.

ـ أنا عارف إن القصر خارج سيطرة الحكومة، وإن الأهالي في المنطقة، ساخطين من الأوضاع فيه، بس ياريت تدوري على موضوع تاني.. بلاش قصر البلطجية ده.

ـ عيب يا ريس.. مينفعش أخرج كده.. وأيدي فاضيه

أخرجت من حقيبتها، تحقيقا صحفيا، أعطته لرئيس التحرير،

صورة للبنت سكر وفوقه عنوان كبير (سكر.. صاحبة المركز الأول في المرحلة الابتدائية بحلوان.. تعيش في قصر مهجور)، قرأه في صمت، وبمجرد أن انتهى من قراءته، حتى أبدى إعجابه الشديد، بذلك التحقيق، وأشر عليه بالموافقة على النشر، فرحت هالة كثيرا، وطلبت من رئيس التحرير، الموافقة على صرف آلة تصوير، إلى زميلها محسن، بديلا عن التي سرقت، فسحب رئيس التحرير ورقة بيضاء، أشر عليها بالموافقة، على صرف آلة تصوير جديدة، شكرته هالة. خرجت من مكتبه، مصممة أن تعاود الدخول إلى القصر، وعمل تحقيق صحفي، مدعوما بالصور، لكل ركن فيه. بمجرد أن خرجت من مكتب رئيس التحرير، حتى اصطدمت بزميلها المصور محسن، سألها في حزن، عن مسعود وآلة التصوير، طلب منها أن تساعده، في شراء آلة تصوير جديدة، فهى السبب في كل ما حدث، ولولا عناية الله، لكانا الآن في عداد الأموات، فمدت يدها في حقيبتها، وأخرجت الورقة، التي أشر عليها رئيس التحرير، ليستلم آلة تصوير جديدة. اجتاحت السعادة قلبه، وظهرت على وجهه ابتسامة كبيرة، أظهرت فكه العلوي البارز، ومنخاره الكبير، قرأ الورقة، ثم دسها في جيبه، وانصرف تاركا هالة، تعاود التفكير في كيفية دخول القصر من جديد.

• • •

١١

في مستشفى حلوان، حيث الزحام الشديد، أمام غرف الكشف، تلك الكتل البشرية، التي وقفت تلتمس الكشف والعلاج بالمجان، فارتفاع أسعار العيادات الخارجية، دفعتهم إلى التزاحم، على المستشفيات الحكومية. سحبت شربات صديقتها صباح من يدها، ودخلت بها غرفة الكشف، أرقدتها على السرير، بجوار الطبيبة، الواقفة في نشاط، لتنتهي من تلك الأعداد الغفيرة، وبدأت الكشف، بسؤال صباح عن شكواها، فشكت لها من تأخر الدورة الشهرية، وشعورها بالتعب والإرهاق من أقل مجهود، بعدما كانت تجوب المحطة والشوارع بلا تعب، وعن رغبتها المستمرة، في إخراج ما في جوفها، وشربات تقف بجوارها، تترقب الموقف، وعلى وجهها، تبدو علامات الخوف والاضطراب، وضعت الطبيبة جهاز السونار، على بطن صباح، ضربت بعيونها على شاشته الصغيرة، وحركت المؤشر، وكبرت الصورة، لاحظت تلك النطفة، التي تنمو بداخل رحمها، لتصبح يوما ما، طفلا يخرج إلى الدنيا، التفتت نحو صباح وابتسمت، ورفعت السماعة عن أذنيها

مبروك أنتي حامل..

لـم يكـن الخبـر بمفاجـأة، لكنـه نـزل كالصاعقـة علـى رأسـها، ندمـت أشـد النـدم، أن سـلمت نفسـها لذلـك النـذل، لـم تفلـح كلمـات الإطـراء، تلـك الكلمـات الرومانسـية، التـي ألقاهـا فـي قلبهـا، فجـرب طريـق الإغـواء، وعدهـا بالـزواج، رسـم لهـا طريـق الجنـة، أن يصبـح لهمـا عشـا، يرقـدان تحـت سـقفه، أن تصبـح أمـا، أن ترتـاح مـن عنـاء العمـل، والتنقـل بيـن أرصفـة المتـرو والشـوارع، لتبيـع المنتجـات الصينيـة الرخيصـة، دس فـي أذنيهـا كلماتـه الناعمـة، حتـى سـقطت فـي قبضـة يـده، فجردهـا مـن شـرفها، وألقاهـا علـى رصيـف العـار. خرجـا مـن المستشـفى، والصمـت يخيـم عليهمـا، كأنهمـا يسـيران لتشـييع جنـازة، يفتشـان فـي عقليهمـا، عـن مخـرج لتلـك الكارثـة، لـم تسـتطع صبـاح، أن تعـود إلـى رصيـف المحطـة، طلبـت مـن شـربات أن توصلهـا إلـى البيـت.

كان الوقـت يقتـرب مـن الظهيـرة، حينمـا كانـت شـربات، تسـير بيـن الـركاب الواقفيـن علـى محطـة المتـرو، تائـه علـى غيـر هـدى، يناديهـا الزبائـن، وهـي سـارحة فـي الملكـوت، تفكـر فـي تلـك الكارثـة، التـي أحلـت بصديقـة عمرهـا صبـاح، رغـم أنهـا لـم تنـس، مـا فعلـه بهـا مسـعود، لكنهـا فتشـت عنـه بعيونهـا الدامعـة، فهـو رجلهـا الـذي تحتـاج إليـه، لـن تتخلـى عـن وجـوده فـي حياتهـا، مهمـا فعـل، رغـم أنهـا قـررت أن تختفـي عنـه، حتـى يشـتاق إليهـا، لكـن مشـاعرها مضطربـة. لا تـدري مـاذا تفعـل، لـو رأتـه أمامهـا، حتمـا سـترتمي بيـن أحضانـه،

تطلب منه أن يسامحها، على سوء ظنها به، ستبرر ما فعله، بالتأكيد نوال من أغرته، واستغلت حرمانه، لكي تصطاد عذريته، مسعود هو النقاء بعينه، لن تهجره، لن تغلق باب الرحمة في وجهه، ستكون معه حتى نهايات العمر. اصطدمت بعيون مسعود، الواقف على رصيف المحطة،عاقدا ذراعيه على صدره، ابتسم إليها، حاولت تجاهل ابتساماته، ومرت من أمامه، وكأنها لا تشعر بوجوده، نادى عليها، فرق قلبها ووقفت قليلا، تقدمت عدة خطوات، فسمعت صوته يناديها من جديد.

علبة مناديل لو سمحتي يا شاطرة

التفتت نحوه، وأعطته علبة المناديل، وعيونها شاردة بعيدا، تخشى أن تصطدم بعيونه، فتنسى كل ما فعله بالأمس، مد يده ليحرك وجهها نحوه، لكنها أبت وتمنعت، فناولها ورقة فئة العشرة جنيهات، نظرت إليها بدهشة، تريد أن تسأله من أين أتى بها؟ لكنها تذكرت أنهما ما زالا متخاصمين، فأخبرته وهى تمط شفتاها.

ـ معكش جنيه فكه.. لسه ما استفتحناش

فهمس في أذنها، إنه يريد أن يأخذ بالباقي قُبل.. فابتسمت بعدما تذكرت موقف الأمس، فطبعت قبلة في الهواء، وأخبرته أن الباقي هكذا وصل، وانصرفت من أمامه، فأمسك يدها برفق، فأزاحت يده بقوة. اقترب منهما شاب الأمس، الذي حاول التحرش بها،

كان مربوط الرأس، متورم الشفاه والخدين، كان يتابع الموقف من بعيد، وأراد أن يستعرض، رجولته أمامها، فتقمص دور عنترة، ليشعرها إنه ما زال موجودا، ولم يهرب كفأر مذعور، صرخ في وجه مسعود.

ـ ما تلم نفسك يا روح أمك

اقترب من مسعود، وأمسك بياقة سترته الجلدية، ناظرا إليه بغضب، محاولا الدفاع عن شربات، لكنه ُصدم من رد فعل شربات، التي دفعته بعيدا، لتدافع عن حبيبها مسعود، فأخرج مسعود مطواة، وأشاح بها نحو وجه الشاب، فابتعد عنهما في ذعر، سحبت شربات مسعود، إلى خارج رصيف المحطة، نظر الشاب في دهشة، وابتعد عنهما إلى أخر الرصيف، وقال في سخرية

ـ اشمعنى؟!

• • •

١٢

عادت هالة إلى البيت المتهالك، الذي تسكن في إحدى شققه، يبدو عليها الإعياء الشديد، دخلت وألقت بحقيبتها على أقرب كرسي، جلست تتأمل تلك الشقوق، التي تجتاح حوائط الشقة، والتي ترسم خريطة غير واضحة المعالم. خرجت عليها أمها فريدة، تلك السيدة الأرستقراطية، التي تفتخر دائما بأصولها، التي تنتمي إلى الأسرة العلوية، لكن الزمن لا يدوم على حال، تبدلت الأحوال، وتزوجت من السيد مراد سلام، أرادت أن تهاجر، مع شقيقتها الوحيدة إلى أستراليا، حاولت إقناع زوجها، أن يهاجروا، لكنه رفض أن يترك مصر.

كانت ترتدي ملابس المطبخ، رغم أنها تبدو متأنقة، ومهتمة بمظهرها العام، بملامحها الأوربية، اقتربت من هالة، تتأمل شحوب وجهها، رغم جمالها الملفت للنظر، بوجهها الأبيض، وعيونها الواسعة، وخدودها المتوردة، قريبة الشبه بملامح أمها، مسحت على شعرها الأصفر الطويل، الذي يتدلى على كتفيها، وسألتها في قلق:

ـ مالك يا هالة..؟

ـ مفيش يا ماما..شوية إرهاق مش أكتر.. هو بابا فين؟

ـ فـي مكتبـه كالعـادة دافـن نفسـه وسـط الكتـب... قومـي غيـري هدومـك.. الغـداء جاهـز

تركتهـا وعـادت إلـى المطبـخ، تتمتـم بعبـارات، تـدل علـى ضجرهـا مـن حياتهـا، ورغبتهـا فـي وجـود خادمـة، فهـي لـم تتـزوج، لكـي تظـل طـوال حياتهـا بداخـل المطبـخ، لعنـت تلـك الظـروف، التـي تعانـي منها الأسـرة، أعلنـت عـن رغبتهـا فـي الهجـرة، إلـى أختهـا فـي أسـتراليا.

دخلـت هالـة غرفـة مكتـب والدهـا، مـراد سـلام، الـذي كان يعمـل فـي دار الكتـب، لكنـه خـرج مـن الخدمـة، بعـد تلفيـق تهمـة لـه، بمحاولـة تهريـب، أحـد الوثائـق الهامـة، إلـى خـارج البـلاد، ورغـم ظهـور براءتـه، إلا إنـه قـرر، أن يسـوي معاشـه، ويقبـع فـي البيـت، بيـن كتبـه التـي يعشـقها.

كان جالسـا علـى مكتبـه، يـزرع رأسـه الأشـيب، بيـن دفتـي كتـاب، بملامـح وجهـه الهادئـة، التـي تشـعرك بأنـك، أمـام مثقـف واسـع الاطـلاع، بتلـك اللحيـة البيضـاء القصيـرة، وشـعره الأبيـض، الـذي يمشـطه علـى جانـب رأسـه. كان يبـدو عليـه الانهمـاك الشـديد فـي القراءة، مستمتعا بصـوت موسيقي مـوزات، التـي تنبعـث مـن جهـاز جرامافـون عتيـق.

(.. كانـت الأميـرة أمينـة، تقـف فـي شـرفة قصـر حلـوان، بوجههـا الأبيـض الممتلـئ، الـذي لـم ينقـص مـن جمالهـا، بـل زاده روعـة وفتنـة، وشـعرها الناعـم، الـذي عقدتـه بتـاج علـى رأسـها، مسـتمتعة

برائحة الزهور العطرة، التي تبعث من حديقة القصر، بينما أقف بجوارها، أتأمل تلك المجوهرات، التي تتزين بها الأميرة، بعين المحرومة، الطامعة في الحصول عليها..)

لم يشعر مراد سلام، بهالة ابنته حينما دخلت عليه، ولم يسمع صوتها، حينما ألقت عليه التحية، طوقت عنقه، وقبلت رأسه، فالتفت نحوها، خلع نظارته، واحتضن رأسها، وقبل وجنتها، وقال بنبرة صوت، لا تخلو من التدليل:

ـ حمد الله على السلامة يا قمري

تركت عنقه، واستدارت حول المكتب، وجلست أمامه وقالت في نبرة حزن:

ـ قمرك كان هيموت النهاردة يا سي بابا

ـ بعد الشر عليكي.. إيه اللي حصل؟!

ـ كنت بأعمل تحقيق صحفي في قصر الخديوي توفيق بحلوان..

ـ ده القصر اللي كان فيه مستشفى حلوان؟

ـ بالضبط.. طلع علينا واحد مجنون.. سرق الكاميرا.. وقال أن القصر ده ملكه

ـ يمكن الخديوي توفيق.. بُعث من جديد

ـ لا اسمه الخديوي عتريس.. قريت عنه في كتب التاريخ.. قبل كده يا بابا؟

ـ ولا في كتاب طبق اليوم.. عندك المكتبة... دوري يمكن تلاقي.. المجانين كتير

دخلت عليهما أمها فريدة، وصرخت فيهما بمنتهى الصرامة، وأشارت إلى باب الغرفة، المؤدي إلى الصالة، حيث مائدة الطعام، التي أنهكتها حتى انتهت من إعدادها.

ـ الغداء جاهز... هتتغدوا ولا أشيل السفرة؟!

جذبت هالة والدها، وهرولا نحو مائدة الطعام، وجلسا يتأملان، وجبة الغداء التي أعدتها فريدة، لكنهما شعرا بخيبة أمل، حينما اكتشفا بأن المائدة، لا تحوي إلا على صينية مكرونة بالباشاميل، وقطعا من الجبن الرومي، والزيتون الأسود، فتبادلا الضحكات، التي وصل صوتها إليها، وهي قابعة في المطبخ، تصنع فنجانا من القهوة، فعادت إلى المائدة، وفهمت سبب تلك الضحكات العالية، التي تعبر عن مدى الاستهجان، من جانب زوجها وابنتها هالة، فتمتمت بعبارات استهجان باللغة الفرنسية، وعادت إلى المطبخ مسرعة، على صوت القهوة وهي تفور.

• • •

١٣

جلس مسعود، على كورنيش النيل، بجوار شربات، ينفث دخان سيجارته في الهواء، فيصنع وجوها لأشباح، صنعها في عالمه الضائع، مر أمامهما أحد الباعة الجائلين، يحمل سبتا محملا بالطعام، نادت عليه شربات، فأقبل عليهما، أخرجت كيس نقودها، واكتفت بشراء وجبة واحدة، وضعتها بجوار مسعود، فنظر إليها وابتسم، محدثا نفسه، هل نست شربات ما فعله بالأمس؟ نظر في عينيها، ومد يده وقطع لقمة، حاول أن يضعها في فمها، فأبت بشدة، وبدأت في توجيه العبارات اللاذعة:

ـ مليش نفس..ُكل أنت.. شكلك جعان من ليلة أمبارح.. شقيان يا حول الله

ضحك مسعود ونعتها بالجنون، وأنها دائما تظلمه، سألته عن طعام الأمس، وردت على سؤالها بسخرية، بالتأكيد قد التهمته نوال، ولم تترك له شيئا، فهى تهوى تناول كل شيء، الطعام والخمر والمخدرات والرجال، ضحك من فرط غيرتها، وأقسم أنه لم يقربها، بل عاد إلى فراشه، يتقلب كالعصفور حتى الصباح، فغمزت بعينها اليسرى، لإظهار عدم تصديقه، ومسحت بيديها على جسدها، وأخبرته أنها لا ترى في نوال تلك، جمالا يجذب

الرجـال، بـل هـي مجـرد عاهـرة، تقـدم جسـدها وجبـة، لأي جائـع يطلبهـا، حتـى ولـو بالمجـان، تحسس ظهرهـا فـي نشـوة، ثـم حـدق فـي عينيهـا، واقتـرب مـن شـفتيها، ليطبـع قبلة سـاخنة، فشـعرت بقشـعريرة تجتـاح جسـدها، ابتلعـت ريقهـا، واقتربـت منـه لتبادلـه شـوقه، وتشـعره بالفـارق الكبيـر، بيـن حضنهـا وحضـن نـوال، لكـن قطـع عليهمـا، تلـك اللحظـة الرومانسـية، أميـن شـرطة، وقـف علـى مقربـة منهمـا، جـذب مسـعود مـن ملابسـه بقـوة، وقـال بلهجـة شـديدة:

ـ قوم يا روح أمك أنت وهيا.. فاكرين نفسكم قاعدين في شرم..

تجمـدت مفاصلهـا، شـعرت بـأن روحهـا تزهـق، وأميـن الشـرطة يأمرهمـا بالقيـام، ليصطحبهمـا إلـى قسـم الشـرطة، لعمـل محضـر فعـل فاضـح فـي الطريـق العـام، فقـام مسـعود غاضبـا، صـرخ فـي وجهـه، أن البلـد كلهـا تفعـل فعـل فاضـح، أشـار إلـى السـيارات، ذات الزجـاج الغامـق، وطلـب منـه أن يفتـح الزجـاج، ليـرى العهـر، أن يكلـف نفسـه، ويذهـب إلـى شـوارع بعينهـا، ليجـد عمـلا، لـن يسـتطع الانتهـاء منـه لسـنوات قادمـة، أن يقـف علـى نواصـي الشـوارع، ليـرى المخـدرات تبـاع علنـا، تحـت سـمع وبصـر زمـلاءه مـن الشـرطة، فلـم تـأت عليهمـا!.

كانـت كلمـات مسـعود، بمثابـة طلقـات ناريـة، أطلقهـا علـى قلـب أميـن الشـرطة، فجعلـت الدمـاء تغلـي في عروقـه، فأصر علـى اصطحابهما، إلـى قسـم الشـرطة، ليثـأر مـن تلـك الاتهامـات، التـي طعنـت كرامتـه،

فليس كل رجال الشرطة كما يدعي، وأشار إلى اثنين من زملاءه، فأركبوهما سيارة الشرطة عنوة، وشربات تبكي وتولول، تتوسل إليه أن يتركهما، لكن بلا جدوى، تحركت السيارة بهما بسرعة نحو قسم الشرطة.

حاول مسعود أن يهدئ من روعها، فهما لم يرتكبا خطيئة، مسح دموعها، التي هطلت على خديها، كأمطار شتوية ثقيلة، لكنها رفضت أن تهدأ، فما حدث كارثة حقيقية، ستنال من سمعتها، وسمعة أهلها، ودخلت في حالة من الانهيار العصبي.

وصلت بهما السيارة، إلى قسم الشرطة، وقفت أمامه، والعساكر يخرجونهما من العربة، وشربات تلطم خديها، تداري وجهها عن الواقفين أمام القسم، خشية أن يراها أحداً، فيتعرف عليها، وتكون فضيحة، لن تمحوها الأيام.

دخلا قسم الشرطة، فتركهما أمين الشرطة، على باب غرفة الضابط، ودخل بمفرده، ليسرد إلى الضابط تلك الاتهامات، التي وجهها مسعود لرجال الشرطة. بعدما خرج أمين الشرطة، تم عرضهما على الضابط، الذي بدأ في السب واللعن، وطلب من مسعود، أن يخرج بطاقته الشخصية، فأخرجها بغيظ، نظر إليها الضابط، لمح اسمه، فعدل من وضعه على الكرسي، قلب نظره بين مسعود، وبطاقته الشخصية.

ـ مسعود منصور إسماعيل الدكش

ثم سرح بخياله، تأمل منظر مسعود وهيئته، ثم أشار إلى أحد العساكر، أن يأخذهما إلى الخارج، وما أن خرجا، حتى أمسك الضابط، بهاتفه النقال، وبدء في إجراء محادثة هاتفية

ـ حسام باشا... أخبار سعادتك.. لقيت لك الولد.. اللي كنت بتسأل عنه.

وقفت شربات أمام غرفة الضابط، ترتجف من الخوف، لأول مرة تدخل قسم شرطة، تدخله متلبسة، بفعل فاضح في الطريق العام، لقد ضاعت سمعتها، ستصبح بين ليلة وضحاها عاهرة كنوال، تتعرض للغمز واللمز من الجميع، الذين سيلفقون عليها ألف حكاية

ـ « لماذا فعلت بي كل هذا يا مسعود؟ «

نظر مسعود إليها، والدموع تهطل من عينيها، فندم على ما فعل، ما كان يجب، أن يرفع صوته على أمين الشرطة، بل كان من الأجدر به، أن يتحايل عليه، أن يُقبل الأيادي، أن يُخرج ورقة مالية، فئة الخمسون جنيها، ويضعها في جيب الأمين، حتى تمر القصة بسلام، لقد أودى بسمعة شربات، وأدخلها قسم الشرطة كالعاهرات، شعر بالذنب حيالها، حاول أن يهدئ من روعها، بكلمات تطمئنها

ـ ما تخافيش يا شربات، لو لزم الأمر، أتجوزك

كانت هذه العبارة بمثابة طوق النجاة، الذي ألقاه إليها مسعود، ليخرجها من بحر الضياع، فرحت واحمرت وجنتاها، كادت أن

تزغرد، لكنها خشيت أن ينعتها الواقفون بالجنون.

ـ أنت بتتكلم جد.. يا حبيبي

ـ حبيبك! أيوه أتجوزك، أن ما كنش دلوقت، أكيد هيكون في يوم من الأيام..

سرحت في تلك العبارة المطاطة.. أكيد هيكون في يوم من الأيام.. وتساءلت.. متى سيأتي هذا اليوم يا مسعود؟، لكن قطع سيل أفكارها، صوت العسكري، ينادي عليهما

ـ يلا يا خويا أنت وهيا، كفايا سهاري، حضرة الظابط عايزكم

عادا إلى غرفة الضابط، والذي ما أن رآهما، حتى ألقى إلى مسعود، ببطاقته الشخصية

ـ ورينا عرض قفاك وأبقه أحترم نفسك، ولما تحب تحسس، شوف خرابة حسس فيها، مش قدام الناس

رغم كلمات الضابط، التي لم تخلو من التجريح، لكن شربات فرحت، بأن المشكلة، قد تم إنهاؤها بهذا الشكل، فكلمات الضابط، أرحم بكثير من كلمات الناس، التي ستنهش جسدها بلا رحمة، وحتى لو تزوجها مسعود، كما صرح لها، سيقولون إنه يحاول، إصلاح ما ارتكبه معها، لكن الله رحيما بها، إذ ستر عليها. أما مسعود، فقد شكر الضابط، وسحب شربات من يدها بهدوء، إلى خارج القسم.

• • •

١٤

جلست سكر في غرفة مسعود، التي تجتاحها البرودة، تفترش الأرض بكتبها، منهمكة في كتابة واجباتها المدرسية، لقد اعتادت، أن تتخذ من تلك الغرفة، ملاذا لها، وهروبا من جو غرفتهم، المشحون بالمشاجرات، بين أبيها وأمها تارة، وبين أخواتها الصغار تارة أخرى، مما يحول بينها، وبين قدرتها على التركيز في المذاكرة. لم تشعر بمسعود، الذي دخل مثقلا بهموم الدنيا، بملامحه التي كساها الحزن واليأس، رأى سكر فانشرح صدره، مع صوت القرآن، المنبعث من مذياعها الصغير، الذي تضعها بجوارها. ما أن رأته حتى ارتبكت، ولملمت كتبها، ووضعتها في حقيبتها، لتنصرف من الغرفة، وتتركها لصاحبها، لكي يستريح، لكنه أشار إليها، أن تستمر في المذاكرة، وأشعل موقد النار، لجلب الدفء إلى الغرفة، ووضع عليه براد الشاي، واقترب منه يستجلب الدفء، ثم سحب براد الشاي، وصب في الأكواب، أعطى لها كوبا، وأخذ كوبا، وشرعا يتسامران، حتى انتهيا من شرب الشاي.

فجأة دخل عليهما، اثنين من رجال عتريس، واقتادوا مسعود إلى غرفة الخديوي، فوجده يجلس في انتظاره، وبجواره نوال، تضع

الفحم المشتعل فوق الشيشة، ويقف أمامه اللصوص، الذين سرقوا حقيبة السيدة، من أمام القصر، في الظهيرة. دخل مسعود رافعا رأسه، بادرهم بنظرة غضب، جمدت مفاصلهم، فبادره عتريس في غضب أشد:

ـ أنت هتعملي فيها مصلح اجتماعي يا روح أمك.. الصبح دافعت عن الصحفية، وضحكت عليا بكلمتين وخرجتها من القصر.. ودلوقتي بتهجم على نشالين شرفاء وتسرقهم.. أنت ليك حدود.. أنا بس اللي ارسمها.. لو أتعديت حدودك أدفنك مكانك..

شعر اللصوص بالسعادة، ومسعود يطأطئ رأسه أمام الخديوي، تحسس الشاب ذو القميص الكروهات رقبته، التي ما زالت تؤلمه. بمجرد أن أنهى الخديوي كلماته، حتى حاول مسعود إقناعه، أن هذا الشاب، قام بخطف حقيبة سيدة، كانت تمر من أمام القصر، وهرع إلى الداخل، وتجمع الأهالي، وحاولوا اقتحام القصر، وإبلاغ الشرطة، ولولا تدخله، لوجد الخديوي قوات الشرطة، تقف فوق رأسه. ضحك عتريس بسخرية، حتى ظهرت عروق رقبته، وانتفخت أوداجه، نفث دخان الشيشة في الهواء، وصرخ في مسعود، بأن رجال الشرطة الذين يتحدث عنهم، يقبضون منه شهريا، مقابل أن يتركوا القصر ورجاله، وأن ما يحصل عليه من الإتاوات، توزع أجور حماية من الداخل، وحماية من رجال الشرطة.

أشـار عتريـس إلـى الجميـع بالانصـراف، بعدمـا حـذر مسـعود، مـن محاولـة تكـرار مـا حـدث. انصـرف مسـعود، وعيونـه متعلقـة بجسـد نـوال، التـي كانـت بيـن أحضانـه ليلـة أمـس، فكـر أن يغمـز إليهـا لكـي تتبعـه، ليسـتكملا تلـك الليلـة الحمـراء، التـي قطعتهـا عليهمـا شـربات، غيـر أنـه تذكـر مـا فعلتـه شـربات بالأمـس، فخـرج مسـرعا، وتـرك نـوال بيـت أحضـان عتريـس، يحتضنهـا ويقبـل خدهـا، وأشـار إلـى مسـعود بسـخرية، نافثـا دخـان الشيشـة خلـف مسـعود

ـ عاملي مصلح اجتماعي ابن روايح...

• • •

١٥

وقفت هالة تفتش أمام رفوف المكتبة بشغف، تأخذ الكتاب تلو الأخر، تقلب صفحاته ثم تتركه، ووالدها يجلس على مكتبه، يحتسي القهوة، يبادل نظراته بين هالة تارة، وبين الكتاب الذي أمامه تارة أخرى.

(... خرجت من غرفة الأميرة، أحمل حقيبتها الممتلئة، بمجوهراتها الثمينة، والأفكار تموج في عقلي، الأسرة العلوية تلفظ أنفاسها الأخيرة، ما بين الإنجليز، الذين يحاصرون شواطئ الإسكندرية، وعرابي الذي يستعد للحرب، والثوار الذين يملؤون الشوارع، وهذه الثروة التي بداخل الحقيبة، لن تزيد أو تنقص، من ملك الأسرة العلوية، فالخديوي توفيق والأميرة أمينة، لا يفكران سوى في أرواحهما، وقد يهرب الخديوي بأسرته إلى الآستانة، ولن يعود إلى الأبد...) وضع مراد سلام، الكتاب في جرد مكتبه، ثم التفت نحو ابنته وسألها

- بتدوري على إيه عندك يا هالة؟

- بدور على كتاب عن القصر اللي حكتلك عنه.. عايزه أعمل عنه تحقيق صحفي.. بس هيكون ناقص من غير الصور اللي أخدتها من جوه القصر..

ـ طيب تعالي جنبي.. هاوريكي حاجة

التفتت نحوه، وتركت رفوف المكتبة، واقتربت منه، وجلست أمامه، تنتظر بلهفة، رؤية ما يحاول إخراجه من درج مكتبه، أخرج كتابا صغيرا أحمر اللون، أشبه ما يكون بمفكرة، سحبتها من يده، ونفضت عنها التراب، تتصفح صفحاتها الصفراء القديمة، فوجدتها مذكرات، مكتوبة بخط يد منمق، يبدو إنه خط امرأة رقيقة، كانت فقراته منظمة، قلبت صفحاتها، فطلب منها والدها، أن تضعه أمامها، وتجلس في هدوء، حتى يحكي لها، قصة هذه المذكرات، فانصاعت لطلبه، وجلست أمامه كقطة مطيعة، تستمع لحكاية المذكرات.

حكى لها، انه منذ حوالي عشر سنوات، حضرت إلى دار الكتب، سيدة في حوالي الخمسين من عمرها، يبدو عليها أنها من عائلة كبيرة، قدمت طلب لتهدي مكتبتها الخاصة إلى الدار، وتم تشكيل لجنة لفحص الكتب، وبينما يقوم بفحص الكتب وفرزها، لفت نظره تلك المذكرات،المكتوبة بخط اليد، والتي ترجع إلى عام ١٩٢٠، مذكرات لسيدة شامية، تدعى ليليان شفيق أنطوان، كانت وصيفة، من وصيفات الأميرة، أمينة إلهامي زوجة الخديوي توفيق، حكت عن حياتها، داخل قصر الخديوي توفيق بحلوان، وعن معاصرتها لأحداث الثورة العرابية، ومن خلال مذاكرتها، حكت أنها استطاعت، سرقة مجوهرات الأميرة، بمساعدة زوجها

إلياس، أثناء انتقال الخديوي توفيق وأسرته، من القاهرة إلى سرايا رأس التين بالإسكندرية، بعد محاصرة الإنجليز لشواطئ الإسكندرية، لكنها لم تستطع أخذها معها، وقامت بدفنها في سرداب القصر، وعملت خريطة بمكانها، واتفقت مع زوجها أن تعود لتأخذها، ويهربا معا إلى بلاد الشام، لكنها لم تفصح في مذكراتها، عن مكان الخريطة، رغم أنها قد كتبت المذكرات، لكي ترسلها إلى ابنها أنطوان، الذي يقيم في القاهرة، ليحصل على المجوهرات.

كانت هالة تستمع بشغف، وهى تعاود فتح المذكرات، تفتش في صفحاتها، لتقرأ بالتفصيل ما رواه والدها باختصار، لكن والدها ابتسم، وطلب منها أن تغلق المذكرات، لان الحكاية لم تنتهي بعد، فأغلقت المذكرات، وعادت كالقطة المطيعة، تستمع إلى باقي الحكاية.

عاود ليسرد باقي الحكاية، انه من حوالي سنتين، وقبل أن يترك دار الكتب، للأسباب التي تعرفها هالة، حضر إلى دار الكتب، شاب يدعى طه شاكر، كان يُحضر رسالة ماجستير، عن القصور الملكية، في عصر الأسرة العلوية، وكان منها قصر الخديوي توفيق بحلوان، كان شاب مجتهد وطيب، أعطاه مراد سلام المذكرات، ليأخذ منها المادة العلمية، ويعيدها إليه مرة أخرى، لكنه اختفى بالمذكرات، على مدار شهرين، ومراد ينتظره أن

يعود بالمذكرات، ولكن بلا جدوى، فشعر بندم شديد، أنه فرط في المذكرات بسذاجة، فقرر أن يفتش عنه، سأل عنه في الجامعة، وعرف عنوانه، وهرول إلى منزله، في مصر القديمة، وبمجرد أن رآه أمامه، حتى ارتبك طه واصفر وجهه، وكأنه قابل ملك الموت، طلب منه مراد سلام المذكرات، لكنه حاول أن يتهرب منه، ووعده أن يحضرها بنفسه إلى الدار، لكن مراد سلام أصر، أن يأخذ المذكرات، وفعلا أخدها، لكنه فوجئ أن غلاف المذكرات الخلفي ممزق، فسأله عن السبب، فأنكر أن يكون قد مزقها، وانه أخدها منه على حالتها تلك، فرحة مراد بعودة المذكرات، كانت أكبر من أن يُحدث مشكلة، على الغلاف المقطوع، فأخذها منه وعاد إلي البيت. ابتسمت هالة، وحاولت فتح المذكرات، لكن والدها ضحك من استعجالها..

ـ شكلك كده زهقتي ومش عايزه تعرفي المفاجأة.. مش هقول خلاص

وضعت هالة المذكرات على المكتب أمامها، ووقفت أمام والدها.. بعدما اتسعت عيناها في انتظار المفاجأة

ـ لا خلاص أنا متابعاك أهو.. مفاجأة إيه بقه؟

ـ من حوالي ست أشهر..قريت في صفحة الحوادث، خبر العثور على جثه بداخل قصر الخديوي توفيق بحلوان، ولما قريت التفاصيل وشفت صورة القتيل...

قاطعته هالة في ذهول

ـ طلع هو الشاب طه شاكر اللي كان معه المذكرات؟

ـ بالضبط.. وهنا فهمت ليه غلاف المذكرات كان مقطوع..

ـ تقصد أن الخريطة كانت في غلاف المذكرات..!

ـ بالضبط كده.. وإن في شخص قتل طه شاكر.. وأخذ منه الخريطة.. ودلوقت بيحاول يوصل لمجوهرات الأميرة في سرداب القصر.

• • •

١٦

جلس مسعود على شاطئ النهر، يتابع صفحته الممتدة، يلعن ظروفه الصعبة، التي أوقعته بين براثن الفقر والجوع، وما ذنب شربات، في ظروفه الصعبة، لماذا صرح لها بالزواج، هل لديه القدرة على الوفاء بوعده، وتدبير تكاليف الزواج، وتحمل مسئولية أسرة، مكونة من زوجة وأولاد، فهو لا يستطيع تدبير نفقاته اليومية، لا يستطيع سد جوعه، فكيف سيتكفل بمصاريف أسرة كاملة، قائمة طويلة من الطلبات التي لا تنتهي، طعام وشراب وكسوة وعلاج وتعليم، وما مصير أولاده، الذين سيأتون إلى الدنيا، من المؤكد أنهم سيرثون فقره، ويصبحون أطفال شوارع، أو يعيشون تحت حكم الخديوي عتريس، أو أحد البلطجية، الذين سيرثون القصر من بعده، بكل المتشردين واللصوص، الذين يعيشون تحت سقفه الخرب.

أمسك حجرا، وألقاه في المياه، فصنع دائرة كبيرة، تابع حلقاتها حتى اختفت، ثم عادت المياه إلى وضعها الطبيعي، لم يشعر إلا وشربات، تتحسس كتفه، في حنو كأنها أمه، مدت يدها بعلبة كبيرة من الكشري، نظر إليها وابتسم، أحس أن شربات، هي كل الدنيا، كل البشر، مصدر الأمان الوحيد في حياته، قبل يدها، وأخذ

منها علبة الكشري، أكل منها بنهم، ليسد جوعه، محاولا الهروب من عيونها، التي يعلم تمام العلم، بماذا تريد أن تخبره، أن ما يدور بعقله يدور بعقلها، ما قاله بالأمس في قسم الشرطة.

كانت شربات تتابعه، وهو يلتهم الطعام، وسرحت بعقلها، لماذا مسعود بالذات، لماذا زغرد قلبها، حينما أعلن عن رغبته في الزواج منها، هل كان محقا، أم أنه كان فض مجالس كما يقولون، كانت الدموع تصارع عيونها، حينما التقت بعيونه، لم تستطيع مقاومة ذلك العشق، الذي يجتاح قلبها، كعاصفة مدمرة، اقتلعت قلبها، وألصقته بداخل قلب مسعود، أخبرته أنها تحبه، هرعت الدموع من عيونها، رغما عنها، مد أصابعه، ومسح دمعة اقتربت من شفتيها، وأخبرها إنه يحبها وسيتزوجها، حتى ولو كلفه ذلك حياته، اقترب من شفتيها ليطبع قبلة، لكنها أزاحته، تلفتت حولها، خوفا من تكرار ما حدث بالأمس، فابتسم وشربات تكرر كلمات الضابط في أذن مسعود

ـ لما تحب تحسس شوفلك خرابه حسس فيها

فضحكا ضحكات هستيرية، حتى كادت أن تسقط على الأرض، من فرط الضحكات، غرف مسعود ملعقة كبيرة من الكشري، ووضعها في فمها، فاغترفت غرفة من الكشري بيدها، ووضعتها في فمه، فامتلأ بالطعام، فأخذ زجاجة المياه، وسكبها على رأسها...

شـردت شـربات قليـلا، فسـألها عـن سـبب شـرودها، فأخبرتـه أن صديقتها صباح مريضة، وأنها تشعر بالقلق عليها، وأخبرته بلا خجل، عن تأخر الدورة الشهرية، وصمتت كثيرا وهي تشعر بالحيرة.

شعر مسعود أن هناك سرا، تود شربات أن تقوله، لكنها خائفة، مسح على شعرها، وطلب منها أن تبوح بما تريد قوله، بلا خوف، فقالت في تردد واضح:

البت صباح حامل!

شهق مسعود، وبدت على وجهه علامات الغضب، وأمسك شربات من ذراعيها يعنفها.

ـ مين ابن الكلب اللي عمل فيها كده؟

فأخبرته أنها لا تدري، لقد ذهبت معها إلى المستشفى، ووقعت الطبيبة الكشف الطبي عليها، فتبين أنها حامل في الشهر الثالث، ألحت عليها كثيرا، لكي تخبرها عن اسم ذلك النذل، فرفضت أن تبوح باسمه، ومع إلحاحها، أقسمت لها، بأنها ستخبرها في الوقت المناسب، وطلبت منها أن تساعدها، في تجاوز تلك المحنة، إن تخلى عنها ذلك النذل، وهو المتوقع، من رجل يعيش في تلك الأجواء القذرة، الممتلئة بالفساد والمخدرات والجنس والإجرام، فلن يخرج عن أحد هؤلاء، الذين يعيشون بداخل القصر.

عاد مسعود إلى القصر، بعدما أخذ قراره، الذي لا رجعة فيه،

أن يحـاول جاهـدا، أن يفـي بوعـده لشـربات، أن يفعـل كل مـا فـي وسـعه، حتـى يكـون معهـا، أن يتزوجهـا علـى سـنة الله ورسـوله، ليـس رغبـة فـي الـزواج، ولا ليصبـح لـه وريثـا، يـرث أملاكـه المترامية الأطـراف، ولا أن يحمـل لقـب عائلتـه، حتـى لا يندثـر لقبهـا، أن لـم يصبـح لـه وريثـا، يحملـه مـن بعـده، ولكـن لكـي لا يكسـر قلـب، تلـك البنـت التـي أحبتـه، أن يحقـق أملهـا فـي الحيـاة، ليـس شـفقة بهـا، ولكـن لأنهـا تسـتحق.

عـاد إلـى القصـر، دخـل غرفـة عتريـس، ارتمـى تحـت أقدامـه، قـدم فـروض الطاعـة والـولاء، عـاد ليعلـن نهايـة تمـرده وعصيانـه، ومحاولـة إصـلاح مـا حولـه، فهـو كمـا قـال عتريـس.. ليـس مصلحـا اجتماعيـا.

فـرح الخديـوي بمسـعود، الـذي ينفـذ تعليماتـه حرفيـا، وبـلا نقـاش، فقربـه إليـه، وأسـند إليـه بعـض الأعمـال بداخـل القصـر وخارجـه، فأظهـر كفـاءة عاليـة، فأغـدق عليـه الأمـوال. اسـتطاع أن يفـي بوعـده لشـربات، بـأن يبتعـد عـن نـوال، فابتعـد عنهـا، ورفـض كل محاولاتهـا لإغرائـه.

ورغـم كل ذلـك، فمـا زالـت عيونـه متعلقـة بآلـة التصويـر، الملقـاة فـي ركـن الغرفـة، التـي وعـد الصحفيـة هالـة أن يعيدهـا إليهـا، مـا ضـر الخديـوي، لـو أخذهـا أو سـرقها، لقـد نسـي أمرهـا، ولـن يهتـم إن

اختفت، فكر أن يتحين الفرصة، لكي يسرقها ويعيدها إلى هالة، كما وعدها.

مرت الأيام سريعا، ومسعود يغلق عينيه وفمه وأذنه، عن كل ما يدور بداخل القصر، فقط ينفذ تعليمات الخديوي بكل دقة، حتى يكسب رضاه، فيغدق عليه الأموال، فيهرع إلى شربات، ويلقي بين يديها، كل جنيه يحصل عليه، ويسألها هل اقترب الموعد؟، فتجيبه بأن المشوار، قد أوشك على الانتهاء، وعليه أن يجتهد أكثر، لكي يكون لهما بيت، قائم على دعائم قوية، ويؤمن حياتهما وحياة أولادهما.

• • •

١٧

كان الجو شديد البرودة، وصوت آذان العشاء، ينبعث من المساجد، المحيطة بالقصر، ومسعود جالسا أمام موقد النار، يستمد الدفء من نيرانها المتوهجة، سحب براد الشاي، من فوق الموقد، وصب كوب الشاي، إلى سكر المنهمكة في المذاكرة، بينما ينبعث صوت أم كلثوم، من المذياع الذي بجوارها، أعطاها كوب الشاي الساخن، فأخذته في سعادة وشكرته.

حمل مسعود المذياع، قلب بين إذاعاته المتنوعة، حتى عاد إلى صوت أم كلثوم من جديد، لم يدرك مسعود، ذلك التعلق العجيب، بين سكر وذلك المذياع، الذي يرافقها دائما، حتى عرف من أمها، السبب وراء ذلك التعلق، فحينما قدموا إلى القصر، كانت سكر حينما يأتي الليل، تشعر بالخوف والذعر، خصوصا حينما ترى، تلك الوجوه الفاسدة، التي تحيط بها، من لصوص ومدمنو مخدرات وعاهرات، وأطفال شوارع تمتلئ بهم أروقة القصر، فكانت ترتعد وتبكي حتى الصباح، فنصح أحد المشايخ أمها، أن تنام ابنتها على صوت القرآن، فاشترت لها ذلك المذياع، الذي يظل طوال الليل، على موجة إذاعة القران الكريم، ومع الوقت

بـدأت سـكر تتنقـل بيـن الإذاعـات، حتـى أدمنـت المذيـاع، فصـار جـزء مـن حياتهـا، فاسـتطاعت أن تتعـرف مـن خلالـه، علـى أخبـار العالـم مـن حولهـا، عـادات وتقاليـد وثقافـات الشـعوب التـي تحيـط بهـا، حفظـت مـن خلالـه، بعـض سـور القـران الكريـم وتفسـير بعـض آياتـه، حفظـت العديـد مـن أغانـي الزمـن الجميـل، اسـتمتعت بالدرامـا الإذاعيـة، وحكايـات ونـوادر المشـاهير، فاكتسـبت ثقافـات متعـددة، سـاعدتها أن تنضـج عقليـا، رغـم سـنها الصغيـر.

كانـت تحـادث مسـعود عـن دراسـتها ومدرسـتها، وعـن أسـتاذة نـدى، التـي تسـاعدها كثيـرا، حكـت لـه عـن مشـاكل أمهـا وأبيهـا، التـي لا تنتهـي، عـن كراهيتهـا للعيـش، فـي هـذا القصـر المهجـور.

فجـأة أشـار إليهـا أن تصمـت، حينمـا لمـح عتريـس، يقتـرب مـن الغرفـة، وخلفـه رجالـه، دخـل عليهـم عتريـس، سـلم علـى سـكر، ومسـح علـى شـعرها، داعبهـا بقـرص أذنهـا الصغيـرة

ـ أزيـك يـا سـكر.. أمـك عاملـه إيـه.. وأبـوك الأسـطى؟ لسـه شـغال علـى التوكتـوك؟

تجاهلـت سـكر تسـاؤلاته، التـي تنـم عـن مـدى سـخريته مـن أسـرتها، نظـرت إليـه باشـمئزاز، ثـم ابتعـدت عنـه، تقلـب بأصبعهـا النحيـف مؤشـر المذيـاع، فتركهـا وهمـس فـي أذن مسـعود

ـ خلي بالك أنا واصل مشوار ساعة زمن وأرجع..

خرج عتريس من القصر وخلفه رجاله، واستكمل مسعود حواره مع سكر، وصوت أم كلثوم يدندن. فكر مسعود، أن ينتهز فرصة، خلو القصر من الخديوي، ويحصل على آلة التصوير. طلب من سكر أن تظل في الغرفة، تستكمل مذاكرة دروسها، حتى يعود إليها، فهزت رأسها بالموافقة.

تسلل مسعود إلى غرفة عتريس، تطلع بداخلها، فلم يجد أحدا، تعجب من اختفاء نوال، يبدو أن لديها سبوبة خارجية، فالخديوي يعلم تمام العلم، أنها لم تتب عن الحرام، لكن ما ضره، فهي ليست زوجته، لقد كره تلك العلاقات الزوجية المزيفة، يكفيه ما يأخذه من لذة النساء.

انطلق مسعود مباشرة إلى ركن الغرفة، الذي رأى فيه آلة التصوير، ملقاة وحيدة، امتلأت بالتراب الناعم، وغطتها القمامة حتى نسيها الجميع، هرول نحوها، التقطها بهدوء، هم بالخروج، لكنه اصطدم بنوال، تقف على باب الغرفة، تعدل من ملابسها، فخبأ آلة التصوير خلف ظهره، لكنها رأتها بين يديه، فمدت يدها، وخطفتها من يده، وهرولت بعيدا عنه، حتى لا يحاول استرجاعها.

- وأخد الكاميرا ورايح فين يا مسعود..

- وأنت مال أهلك.. هاتي الكاميرا

اقترب منها، خطفها من يديها، حاول أن يخرج من الغرفة، لكنها

هددته أنها ستخبر عتريس، فشعر بالخوف، أن يخسر ثقة عتريس من جديد، حاول أن يتفاهم معها، لكنها أبت، إلا أن تخبر عتريس عن السرقة والخيانة، التي ستكون عقوبتها الطرد من القصر، فقال لها مستعطفا

أهون عليك يا نوال..

ـ أضحك عليا بكلامك الناعم.. روح لست شربات بتاعتك.. اللي قدامها بتكون ذي الفأر.

اقترب منها محاولا إرضائها، فهو يعلم تمام العلم، رغبتها الشديدة فيه، اقترب منها واحتضنها، فانسلت من بين يديه، وخطفت آلة التصوير من يده، وألقت بجسدها فوق السرير، واحتضنت الآلة، وأشارت إليه أن يأتي، ليحصل عليها، فلن تخبر عتريس بسرقتها، لقد نسي موضوع الصحفية برمته.

فكر مسعود أن يقفز على السرير بجوارها، ويخطف من يدها آلة التصوير، لكنه تردد قليلا، مخافة أن يهبط عليهما عتريس، وتكون كارثة، لكن نوال المتمرسة، تعرف كيف تجبر الرجال، على الانحناء والسقوط تحت قدميها، فشرعت تتعرى أمامه باحترافية شديدة، رغم أن مسعود، ليس بحاجة إلى كل هذا الإغراء، لكي يجهز عليها، لكن خوفه من عتريس، هو ما يحول بينه، وبين ما يتمناه، انتفض جسده، بعدما تعرت تماما، وسحبت الغطاء الثقيل، على جسدها العاري، ووضعت آلة التصوير بين

أحضانهـا، وأشـارت إليـه أن يأتـي، ليحصـل عليهـا، فخلـع السـترة الصوفيـة التـي يرتديهـا، وأنكـب عليهـا، انتـزع آلـة التصويـر مـن بيـن يدهـا، واقتـرب مـن وجههـا، وأطبـق بشـفتيه علـى شـفتيها، لتبـدأ معركـة عنيفـة، اسـتخدما فيهـا، كل وسـائلهما المشـروعة وغيـر المشـروعة، ونـوال تطلـق صرخـات ماجنـة، تتناسـب طرديـا، مـع ضربـات فـؤوس الرجـال، الذيـن يحفـرون أمـام السـرداب، ويضربـون الأرض بـلا رحمـة.

• • •

١٨

كانت هالة جالسة في غرفتها، أمام جهاز الحاسب الآلي، تفتش عبر المواقع الإليكترونية، عن معلومات عن الأميرة أمينة إلهامي، زوجة الخديوي توفيق، عن تلك المجوهرات، التي يفتش عنها اللصوص، في سرداب القصر، جمعت كل صور الأميرة، شاهدت صور المجوهرات، التي كانت الأسرة الملكية تهتم باقتنائها، جمعت المادة التاريخية، وأعدت التحقيق الصحفي، عن الأميرة أمينة ومجوهرات، وطبعت منه نسخة، لعرض التحقيق كاملا، على رئيس التحرير، همت أن تغلق الحاسب الآلي، وتخلد إلى النوم، وفجأة وصلت إليها رسالة إلكترونية، عبارة عن كلمة واحدة فقط، اختصرت مشاعر عميقة بين عاشقين

- وحشتيني!

أشتعل قلبها، وانفرجت أساريرها، إنها من أكرم ابن خالتها، الذي هاجر مع أسرته إلى أستراليا، رغم فرحتها بالرسالة، التي حركت الأشواق، بداخل قلبها، غير أنها تجاهلتها، فأتبعها برسالة أخرى.

مالك يا رخمه ما تردي..

أرسلت إليه ملصقا يعبر عن غضبها، لقد هاجر وتركها، رغم أن لديه أسبابه القوية، التي تجعله يهاجر إلى المريخ، لقد تخرج من كلية الهندسة، ليجد نفسه، على الرصيف الممتلئ عن آخره بالخرجين، فأقنع أمه بالهجرة إلى بلد، يستطيع أن يحقق فيها طموحاته، كانت أمه أيضا، لديها الرغبة في الهجرة، اقترحت عليه الهجرة إلى أستراليا، فلديها أقارب يعيشون هناك، منذ سنوات طويلة، أعدت نفسها للهجرة، حاولت إقناع أختها فريدة، للهجرة معها، إلا أن زوجها مراد سلام، رفض بشدة أن يترك وطنه، ويعيش غريبا، ويدفن في مقابر الغرباء، فمهما كانت أوضاعه سيئة، فسوف تتحسن يوما ما، رغم ندمه الشديد فيما بعد، على موقفه ذلك، خصوصا بعدما ترك عمله، وظل حبيس البيت، شعر بالندم، لأنه ضيع على أسرته، فرصة أن يعيشوا حياة كريمة. زوجته فريدة، كرهت الأوضاع المعيشية الصعبة. ابنه فؤاد، اضطر أن يسافر إلى أحد الدول العربية، للعمل تحت رحمة الكفيل. ابنته هالة، حرمت من حبيبها، الذي هاجر ولن يعود إليها أبدا، شعرت هالة بالحزن، حينما أرسل إليها ملصقا رومانسيا، يعبر عن عشقه لها

ـ أنت لسه بتحبني يا أكرم؟

ـ طبعا يا مجنونة.. وهابعتلك زيارة، نتجوز ونعيش هنا

مسحت دموعها، وأرسلت إليه ملصقا، يعبر عن فرحتها وسعادتها، فأرسل إليها ملصقا، عبارة عن باقة زهور حمراء. ظلا طوال الليل، يتبادلان الملصقات الرومانسية، يتسامران، يبوحان بعبارات العشق والشوق والحنين، حتى مطلع الفجر..

• • •

١٩

هبط مسعود من غرفة الخديوي عتريس، بعدما سلمه إيراد الإتاوات، وحصل منه على نصيبه منها، اصطدمت عيناه بصباح، صديقة شربات، تقف بصحبة عباس، تصرخ في وجهه، تشير إلى بطنها، التي ترتفع يوما بعد يوم، تطالبه أن يفي بوعده، أن يعترف بذلك الطفل، الراقد في رحمها، أن يتخلى عن دور النذل، أن يصطحبها إلى المأذون.

لكنهما التزما الصمت، بمجرد أن هبط مسعود عليهما، كرياح الخماسين، ما أن رأته حتى ارتبكت، وانصرفت من أمام عباس، الذي نظر إلى مسعود بغيظ شديد، مسح على أرنبته في غرور، وكأنه يتوعده، وهرول إلى خارج القصر.

هرول مسعود نحوها، وألف سؤال يطارده، فصباح لأول مرة، تأتي إلى القصر، لقد فهم الآن، من ذلك النذل، الذي فعل بها، تلك الفعلة الشنيعة، جذبها من ذراعيها، وثبت عيونه في عيونها الواهنة، لاحظ تلك البطن، التي بدأت في الارتفاع، ذلك السواد الذي أحاط بعيونها، وملامح الهزال، التي بدت على جسدها، بعدما كانت نضرة وقوية، سألها في فزع

- في إيه يا صباح.. إيه اللي جابك هنا؟!

ـ شربات بعتاني.. خالتك تعبت ونقولها المستشفى

انقبض قلبه، وتغيرت ملامحه، فعلى الرغم من عداوة خالته، التي لا يعلم أسبابها، غير أنها آخر من تبقى من شجرة عائلته، التي لا يعرف منها، سوا أغصان أمه، أما عائلة والده، فلا يعرف من أغصان شجرتها أحدا، سحب صباح من يديها، وأسرع إلى مستشفى حلوان.

دخل المستشفى يفتش عن شربات، بين ردهاتها الواسعة، بينما ألقت صباح بجسدها، على أقرب كرسي، ولاذت بالصمت، فليس لديها رغبة، في مشاركة أحدا أوجاعه، يكفي ما بها من أوجاع، لقد حاولت إقناع عباس، أن يتزوجها، ولكنه كأي نذل، ماطل في طلبها، بل يريد إجبارها، أن تسقط ذلك الطفل، الراقد في رحمها، فكيف سيخرج إلى الحياة بدون أب.

وجد مسعود شربات، تقف أمام غرفة الاستقبال، يبدو عياها القلق، بمجرد أن رأته أمامها، حتى ارتمت بين أحضانه، فمسح على شعرها، وقبل رأسها، شعرت بالراحة، أيقنت بأن مسعود، هو رجلها الوحيد في هذا الكون.

ـ في إيه يا شربات مالها خالتي؟

ـ تعبت فجأة.. والدكتور بيكشف عليها جوه

خـرج الطبيـب، بطولـه الفـارع وجسـده النحيـف، واضعـا يـده فـي جيـوب سـترته البيضـاء، تتدلـي السـماعة مـن رقبتـه، تأمـل الواقفيـن، أمـام غرفـة الاسـتقبال، وقـال علـى عجـل، مبديـا الاهتمـام.

ـ مين اللي مع أم شربات؟

ـ أيـوه يـا دكتـور.. مالهـا خالتـي.. دي كانـت ذي الحصـان.. ربنـا يقومهـا بالسـلامة

سـمعت أم شـربات كلمـات مسـعود، شـعرت أن فيهـا، قـدرا كبيـر مـن الشـماتة، فقامـت مـن سـريرها، أمسـكت جنبهـا بيدهـا، واسـتندت بيدهـا الأخـرى علـى الحائـط، وصرخـت فيـه، رغـم مرضهـا وصوتهـا الواهـن.

ـ أنت شمتان فيا يا ابن روايح!

هرولـت شـربات نحوهـا وأسـندتها، اقتـرب منهـا مسـعود، احتضنهـا وقبـل رأسـها، وقـال فـي حـزن

ـ أشـمت فيكـي ليـه بـس يـا خالتـي..ده أنتـي أخـر ورقـة فـي شـجرة العيلـه. ربنـا مـا يحرمنـي منـك.

لكن الطبيب تدخل، وصرخ فيهم:

ـ خـلاص يـا جماعـة أهـدوا.. خالتـك عندهـا حصـوة علـى الكلـى ومحتاجـه عمليـة ضروري..بـس يكـون أفضـل لـو تتعمـل في مستشـفى خاصـة... عشـان حالتهـا مسـتعجلة.. ومـش هينفـع تنتظـر

نظـرت شـربات إلـى مسـعود، بعدمـا أرعبتهـا كلمـات الطبيـب، سـألت

الطبيب في خوف:

ـ ودي هتكلف كام يا دكتور؟

ـ حوالي خمسة آلاف جنيه

ألقى الطبيب بتلك العبارة، ثم انصرف، متجها نحو الممر، المؤدي إلى غرفة الأطباء، نظرت شربات إلى مسعود نظرة توسل، فصرخ فيها، بعدما أجلس خالته على السرير، بداخل غرفة الاستقبال

ـ بتفكري في إيه يا مجنونة.. روحي هاتي كل الفلوس اللي معاكي.. دي خالتي قبل ما تكون أمك

ما أن سمعت أم شربات كلمات مسعود، وتكفله بمصاريف العملية، من الأموال التي يدخرها مع شربات، حتى شعرت بالحرج من موقفه الرجولي، رغم أنها لم تحبه يوما، لم تعطيه من حنانها مطلقا، لم تفكر أن تضمه إلى صدرها، أن تكون له أمه التي افتقدها.

ـ أصيل يا ابن روايح.. نردهالك في الأفراح يا ابن أختي

ضحك مسعود وأحتضنها، ومسح على رأسها، وجلس على أقرب كرسي

ـ ما كنت شمتان فيكي من شويه.. يا باي عليك يا خالتي.. ربنا يقومك بالسلامة .

• • •

١٢٠

عاد مسعود إلى القصر، بعد ما تم إجراء العملية الجراحية، لخالته بنجاح، واستقرت حالتها، واطمأن عليها، وعادت إلى بيتها، جلس يدخن سيجارة، ويلتمس الدفء من الموقد المشتعل، دخلت عليه أم سكر، تحمل ملابسه التي غسلتها، وضعتها على الحبل، الذي صنعه ليضع عليه ملابسه، وجلست بجواره، وأسندت ظهرها إلى الحائط، فردت رجليها على الأرض، فتعرت وظهر بياض قدميها وساقيها، أخذت من يده السيجارة، سحبت منها نفسا طويلا، ونفست دخانها، في هواء الغرفة، الممتلئ بالرطوبة، ثم أعادتها إليه، نظر إليها في شفقة، والدموع تكاد تهطل من عينيها.

ـ مالك يا أم سكر؟

ـ مالي إيه.. أنت عجبك الفقر اللي إحنا عايشين فيه!.. والخرابة اللي عايشين فيها، وبناتي اللي بيناموا فوق بعض زي الكتاكيت، بعد ما كنا عايشين في شقة محترمة، وأبو سكر اللي كان أسطى في مصنع كبير، يسوق توكتوك على أخر الزمن.

ـ معلش بكرة تتعدل يا أم سكر.. الصبر جميل

ـ الصبر.. هنفضل الصبر لحد ما نموت من الجوع.. وندفن في الخرابة دي..

لاحظت أن مسعود، يختلس النظر إلى قدميها، فزادت في التعري، وأمسكت يده، واقتربت منه، لكنها عادت أدراجها، حينما دخلت سكر، نادت على مسعود، بصوت منخفض

- عم مسعود.. تعالى شوف

هرع مسعود وأم سكر خلف ابنتها، ووقفا في مدخل الغرفة، يسترقان النظر، شاهدوا أربعة رجال، يقتادون فتاة، في العقد الثاني من عمرها، نحيلة القوام، متوسطة الطول، مكبلة اليدين، يدفعونها دفعا إلى إحدى غرف القصر، لقد استطاع معرفتهم، فعلى مدار الفترة القليلة، التي قضاها بالعمل مع عتريس، استطاع أن يعرف، كل غرفة بداخل القصر، وسكانها ونشاطهم الذي يمارسونه، فهؤلاء الرجال يتخذون إحدى غرف القصر، مخزنا لبضاعتهم المسروقة، ويدفعون بسخاء إلى الخديوي.

لكنهم لأول مرة يحضرون فتاة! تلاعبت التساؤلات في عقله، هل اختطفوها ليمارسوا معها الرزيلة، أم لمساومة أهلها، وطلب فدية كبيرة، فيبدو أنها ابنة عائلة كبيرة، لقد رأى ذلك في ملابسها الفاخرة، وملامحها التي تفوح منها رائحة النعيم، ظل يتابع تحركاتهم، حتى دخلوا الغرفة، وأغلقوا الباب الحديدي، الذي صنعوه خصيصا، للحفاظ على بضاعتهم، من التعرض للنهب من رواد القصر. همست أم سكر في أذن مسعود

- ودي خطفوها ليه يا مسعود.... يكونوا ناويين...؟!

ـ يمكن.. مش عارف.. روحي نامي أنتي يا سكر

أسرعت سكر إلى غرفتها، بينما تحرك مسعود، وخلفه أم سكر، نحو غرفة اللصوص، وضع أذنه على بابها، محاولا سماع ما يدور بداخلها، رغم أن الصوت كان خافتا، لكنه استطاع أن يعرف ملامح القصة، لقد خطفوها، ليساوموا أهلها، ثم يتركونها، بعدما يحصلون على مبلغ كبير من المال، لكنهم اختلفوا فيما بينهم، هل سيخبرون عتريس، أم يتكتمون أمر الفتاة برمته، فعتريس يعرف أنهم يتاجرون في البضائع المسروقة، ولو علم أنهم قد اختطفوا فتاة، وأحضروها إلى القصر، ولم يخبروه بذلك، لتعرضوا لغضبه، ولطردهم من القصر، بعدما يستولى على بضاعتهم، قرروا أن لا يخبروه، حتى لا يقتسم معهم، ما سيأخذونه، على أن يتناوبوا الحراسة على الفتاة، حتى تنتهي القصة بسلام.

عاد مسعود وخلفه أم سكر إلى غرفته، يفكر فيما رآه وسمعه، هل وصل الإجرام إلى هذا الحد؟ يخطفون بنت صغيرة، ويحرقون قلب أهلها عليها، ما حال أهلها الآن، لقد تذوق طعم الحرمان من الأهل، لم يرى أباه، ولم يعيش مع أمه، كان طريدا من أزواجها، الذين لم يقبلوه في بيوتهم، حتى خالته، رفضت أن يعيش معها، فلم يجد إلا الرصيف مأوى المتشردين، شعر بالحيرة، فسأل أم سكر

ـ والعمل يا أم سكر؟

ـ وإحنا مالنا.. هو إحنا قد العالم دي يا مسعود...ولا أنت البت

صعبت عليك

اقتربت من مسعود، ومسحت على صدره، وقربت شفتيها من شفتيه

ـ أنت حنين أوى يا مسعود

لكنها أفاقت على صوت أبوسكر، ينادي عليها، فارتجفت من الخوف، وتركت حضن مسعود، نفضت التراب عن ملابسها، وعادت إلى غرفتها.

جلس مسعود، يفكر في الأمر بهدوء، هل يخبر الخديوي بما حدث، ويقنعه بعودة البنت إلى أهلها، أم يقتحم الغرفة، ويحرر الفتاة، ويعيدها إلى أهلها بنفسه، لكن لو عرف الخديوي بما فعل، سيطرده من القصر بلا رجعة، قرر أن ينام الآن، وينتظر حتى الصباح.

• • •

١٢١

وقف رجل الأعمال، وعضو مجلس النواب، شوقي الجوهري، في بهو فيلته مصر الجديدة، بجسده الممتلئ، وطوله الفارع، وحوله أولاده الصغار يبكون، لاختفاء شقيقتهم سوزي، بينما يبدو علي زوجته القلق والتوتر، تطالبه بسرعة التصرف، فابنتهما في خطر، يجب أن تظهر، قبل أن ينتشر الخبر، ويشمت فيها صديقاتها، فحادث كهذا، كفيل بأن يقضي، على مستقبله السياسي، وعلى سمعة ومكانة العائلة، بين عائلات المجتمع، كل ما كان يشغلها، خوفها من أن تصبح علكة، في أفواه صديقاتها، حاول شوقي أن يهدئ من روعها، طالبها أن تصمت حتى يستطيع التفكير بهدوء، لقد كلف رجاله، للبحث عنها في المستشفيات، وأقسام الشرطة.

ـ مش كفايا يا شوقي.. صعد الموضوع لأعلى المستويات.. أتصل بوزير الداخلية

ذكرها أنهما لا يريدان أن يشاع الخبر، فالانتخابات على الأبواب، وخبر كهذا، كفيل بان يقلل من مكانته الاجتماعية والسياسية، ألقى بجسده على اقرب كرسي، يفكر فيمن تجرأ واختطف ابنته، من الذي يكرهه إلى هذا الحد، تذكر تلك المقابلة، التي تمت

فـي أحـد الفنـادق الكبـرى، بينـه وبيـن غريمـه، رجـل الأعمـال فتحـي الدمنهـوري.

ـ أنت ناوي تنزل الانتخابات السنة دي يا باشا؟!

ـ طبعـا يـا فتحـي باشـا.. هـو حـد يقـدر يسـتغني عـن عضويـة مجلـس النـواب

ـ هـو أنـت محتاجهـا فـي إيـه.. مـش كفايـا الشـركات والمصانـع.. والملاييـن اللـي فـي البنـوك

ـ الفلـوس مـش كل حاجـة فـي البلـد دي..لازم يكـون ليـك ضهـر تتسـند عليـه.. مـن غيـر السـلطة هتكـون ملطشـة، وخـد عنـدك بقـه.. حبايبنـا كتـار.. ومصايبنـا أكتـر

ـ بس أنا من حقي... أخد العضوية السنة دي

ـ جبتـه منيـن الحـق ده.. مـا أنـت بتدخـل الانتخابـات حـد منعـك.. والشـاطر هـو اللـي بيفـوز

ـ بس السنة دي لازم أفوز.. بأي وسيلة.. فاهم يا شوقي.. باشا

فجـأة رن هاتفـه النقـال، فاسـتيقظ مـن شـروده، وقـام منتفضـا، نظـر إلـى الرقـم، الـذي يتصـل بـه، فوجـده بـدون اسـم، قبـل المحادثـة علـى الفـور، لعلهـا تجلـب أخبـارا عـن ابنتـه

ـ الـو.. ميـن معايـا.. أنـت ميـن.. بنتـي عندكـم.. مـا أخفـش أزاي.. خطفينهـا ليـه وعايزيـن إيـه؟.. أنسـحب مـن الترشـح فـي الانتخابـات.. ولـو مـا انسـحبتش مـش هشـوف البنـت.. الـو....

هرعت زوجته نحوه في فزع....

ـ ميـن ده يـا شـوقي؟ وعايـز إيـه؟.. رن عليـه تانـي وشـوف البنـت فيـن..

حـاول الاتصـال بالرقـم، لكنـه وجـده مغلقـا.. فسـقط علـى الكرسـي منهـارا، يحـادث نفسـه، عـن غريمـه فتحـي الدمنهـوري، الـذي تجـرأ وقـام بتلـك الفعلـة، وتوعـده بالانتقـام..

• • •

١٢

كان مسعود يغض في نوم عميق، حينما شعر بيد ناعمة، تتحسس جسده، فاحتضن اليد وضمها إلى صدره، فاقتربت منه أكثر، وقبلت رأسه، فجذبها نحو حضنه، واحتضنها بشدة، تحسس جسدها، وهو لا يزال مغمض العينين، ثم قال في نشوة

- وبعدين معاكي يا أم سكر..

لم يشعر إلا واليد، تتملص من يده، وتضربه على رأسه، وجسده بعنف، فارتجف وقام مفزوعا، فإذا بشربات تضربه، في كل موضع بجسده، وتشبعه تقريعا وشتيمة

- أنت وصلت لأم سكر كمان يا روح أمك!

رغم وقع المفاجأة، لكنه حاول أن يمثل دور النائم، ويتغزل فيها

- بحبك يا شربات يا سكر

لم تنخدع بكلماته المعسولة، كشرت عن أنيابها، ولوت ذراعه، وقرصته في فخذه بعنف

- عارف لو فكرت تلعب بديلك من ورايا هاقطعهولك يا روح أمك.. خد اطفح الفطار

وضعت الطعام بجواره، رأى الابتسامة تعلو وجهها المشرق، أحتضن جسدها بقوة، وجذبها تحته، فأزاحته بقوة، وقامت وعدلت

من ملابسها، ثم جثت على ركبتيها بجواره، فتحت لفة الطعام، قطعت الخبز ووضعته في فمه، فالتهم اللقمة، تلو الأخرى، تذكر ما حدث بالأمس، فترك الطعام، وسرد لها ما حدث، فأحس بالشفة، تطل من ملامح وجهها، قالت في جزع

ـ هتتصرف أزاي؟!

ـ بفكر أقول لعتريس.. بس ده كلب هيطمع اكتر.. عشان يقسم معاهم الفلوس

ـ يبقى لازم نساعدها ترجع لأهلها.

قبل آذان الفجر، وبعد أن اطمأن مسعود، أن رجال عتريس في نوم عميق، اقترب من باب الغرفة الحديدي، الذي تخفى العصابة البنت خلفه، طرقه عدة طرقات خفيفة، سمع صوتا يأتي من داخل الغرفة، أقترب أحدهم من الباب وفتحه، فوجد مسعود أمامه، فعاجله مسعود بضربة على رأسه، فسقط على الأرض. فتش مسعود بعيونه بداخل الغرفة، فلم يجد غير الفتاة تجلس القرفصاء، مكبلة في قيودها، ويبدو عليها النعاس الشديد، فأشار بيده إلى شربات، الواقفة في مدخل القصر، فهرولت نحوه، ودخلا سويا الغرفة، اقتربا من الفتاة، فشعرت بهما، وانتفض جسدها، وارتجفت من الخوف، فطمأنتها شربات، فك مسعود قيودها، فشعرت بالسعادة.

شكرتهما كثيرا، وهما يخرجان بها من باب القصر، حيث يقف أبو سكر بالتوكتوك في انتظارهم، وضعوها في المقعد الخلفي، وركبا بجوارها، وانطلق بهم أبو سكر إلى خارج حدود القصر.

بدأت البنت تطمئن إليهم، وتسرد ما حدث بينما كانت تركب سيارتها، عائدة من الجامعة، وإذا باثنين من الرجال، يعترضون طريقها، ويخرجونها من السيارة، ويكممون فمها، ويخدرونها، ولم تشعر إلا وهي مقيدة، بداخل تلك الغرفة القذرة، فبادرتها شربات

ـ أنتي اسمك إيه؟ وساكنه فين؟

ـ أنا اسمي سوزي.. عايشه في مصر الجديدة.

فقاطعها أبو سكر في غضب

ـ مصر الجديدة.. ده مشوار طويل أوي يا عم مسعود.. والسولار شحيح في السوق.

لكن سوزي قاطعته، بأنها ستدفع له ما يشاء، بمجرد أن تصل إلى أهلها، نظر أبو سكر في مرآة التوكتوك، تأمل ملامحها الرقيقة، وملابسها الأنيقة، فأخبرهم أنها يبدو عليها، ابنة عائلة كبيرة، فابتسمت وأخبرتهم بكبرياء غير مصطنع

ـ أنت متعرفش بابا!

فسألها أبوسكر بنبرة استهزاء، من حالة الغرور التي أصابتها فجأة

- هيكون مين يعني.. محافظ مصر الجديدة!

- شوقي الجوهري.. رجل الأعمال.. وعضو مجلس النواب.

بمجرد أن سمع أبو سكر اسم شوقي الجوهري، حتى توقف فجأة عن السير، وتنحى إلى جانب الطريق، في حركة مباغتة غير متوقعة، صمت كقبر، ولم يجب على مسعود، الذي سأله في دهشة

- في إيه يا أبو سكر وقفت ليه؟

لم ينطق بكلمة، بل توقف عن القيادة، سرح قليلا، ثم أخرج علبة سجائره، وأشعل واحدة، ثم أكمل السير، يفكر في صمت. رجل الأعمال شوقي الجوهري، الذي اشترى المصنع، الذي كان يعمل فيه، ثم أغلقه وشرد عماله، لقد كان السبب، في ضياع مستقبله، وتشريد عياله، لقد حوله من عامل، يصنع بيده احتياجات وطنه، إلى سائق توكتوك، مكتوب عليه (صنع في الهند).

كما عرفه مسعود أيضا، فصوره معلقة، على كل جدار في حلوان، فهو ابن النظام السابق، وابن النظام الحالي، وابن كل نظام سوف يأتي، فهو مرشحهم الدائم في البرلمان، والذي لا يعرفون له طريق، ولا يرون له وجهه، إلا حينما يأتي موسم الانتخابات، فيظهر بوجهه الباسم، وعباراته الرنانة، وصوته المفعم حنانا وعطفا، وعطاياه الوفيرة، من زيت وسكر وأرز وبطاطين،

وحينما يأتي يوم الانتخابات، يشتري أصواتهم بأعلى الأسعار، ليحصد أعلى الأصوات، ويدخل البرلمان بجدارة، وبعدها لا يرون وجهه، ولا عطاياه، إلا في الدورة التالية. سألها مسعود

ـ طيب والناس دول خطفوكي ليه؟!

ـ معرفش.. مع أن بابا كل الناس بتحبه.

اقتربوا من أسوار الفيلا، فأشارت سوزي، إلى أبو سكر أن يتوقف، فتوقف أمام باب الفيلا، نادت على رجال الأمن، فهرعوا نحوها، في فرح وسعادة، لقد عادت ابنة ولي نعمتهم، الذين يعيشون في خيره. هرول الجميع إلى داخل الفيلا، سار مسعود وشربات وأبوسكر، مبهورين بتلك الفيلا الواسعة، ذات الأسوار العالية، والمباني الضخمة، تلك الحديقة الخضراء، التي تتسع لبناء حي، مثل الحي الذين يتكدسون بداخله كالحشرات، وحمام السباحة، الذي يتوسطه نافورة كبيرة، على هيئة تمثال لفتاة إغريقية عارية. تذكروا تلك الجحور، التي يعيشون بداخلها مثل الفئران، تذكروا الجوع والفقر والمرض، الذي يحاصرهم، يخنقهم بلا رحمة. هل هؤلاء البشر، الذين يعيشون هنا، مثلهم من أبناء نفس الوطن، ويعيشون على نفس الأرض، ويعانون من نفس الظروف الاقتصادية المريرة، التي يدعي رجال الإعلام، أن البلاد تمر بها، أم أن تلك الظروف الصعبة، تمر بهم فقط، لتطحنهم بلا رحمة، وتذيقهم الجوع، ومرارة الحاجة. هرع أحد رجال الأمن، إلى شوقي الجوهري بداخل الفيلا.

ـ يا سعادة الباشا.. سوزي هانم رجعت..

لم يصدق شوقي الجوهري نفسه، وهو يرى ابنته أمامه، هرعت إلى حضنه وبكت، ربت على كتفها، ومسح على شعرها، ترك حضن أبيها وهرعت إلى حضن أمها باكية، بينما وقف شربات ومسعود وابوسكر، مبهورين بمشهد الفيلا من الداخل، بينما الأصوات تأتي من كل اتجاه، ما بين البكاء والابتسامات والزغاريد والاستفسارات، فتحدث ضوضاء كبيرة، فظهر صوت شوقي، مطالبا الجميع بالهدوء، وبدأ في طرح الأسئلة على ابنته، في محاولة للتوصل، إلى أبعاد تلك المؤامرة.

ـ كنت فين يا سوزي؟ وإيه اللي حصل؟ ومين دول؟

ـ دول اللي أنقذوني من اللصوص اللي خطفوني يا بابا

وجه شوقي الجوهري الشكر إليهم، ودعاهم للجلوس، لكن أبوسكر، ظل جامدا كالصخر، نظر إليه في غضب، فلم ولن ينس، ذلك الرجل، الذي دمر حياته، فكر أن يتهجم عليه، أن يقتله، أن يدمره، كما دمره أسرته. اقتربت سوزي من أبيها، همست في أذنه، فنظر إلى أبوسكر في عطف، وأخرج من جيب سترته، رزمة كبيرة من الأموال، اقترب منه، ومسح على كتفه، وأعطاها له، لكن أبوسكر، نظر إليه في اشمئزاز، وأطاح بالأموال من يده، فتناثرت على الأرض، نظر إليه شوقي في غضب، لكن المعروف، الذي صنعه مع ابنته، منعه أن يرتكب معه حماقة، فبادره أبو سكر في حزن حسرة

ـ خليهالك يمكن تزود شويه من الملايين اللي في خزاينك.. يمكن تصحي ضميرك، وتفكرك بالعمال اللي شردتهم ودمرت حياتهم.. طالما المصنع ملوش لازمة عندك... اشتريته ليه، وقفلته ليه، وشردت عماله ليه، وحرمت البلد من خيره ليه.. وعوزتنا نشتري من الأجانب ليه؟

ـ مصنع إيه يا مجنون أنت؟

ـ مصنع بلاستيك حلوان.. اللي اشتريته وقفلته... وشردتنا في الشوارع

نظر إليه شوقي في غضب، محاولا تبرير فعلته

ـ روح أسال الحكومة اللي خصخصته.. كل اللي اشتروا القطاع العام عملوا كده..ده نظام أنا وانتم تروس صغيرة أوي فيه.. نظام ما ينفعش معاه ثورة العيال اللي عملتوها.أسكت يا أبوسكر ما تخلياش نقول كلام ملوش لازمة.

صمت الجميع، و أبوسكر يبكي بحسرة، ومسعود وشربات يلتفون حوله، في محاولة لإسكاته، نظرت سوزي إلى أبيها في تنكر، لقد صغر في عينيها كثيرا.

أشار شوقي إلى مسعود، وأعطاه رزمة من الأموال، وطلب منه، أن يعطيها لأولاد أبوسكر. هرول أبوسكر إلى باب الخروج، وتبعه مسعود وشربات، خرجوا من الفيلا، ركبوا التوكتوك عائدين إلى حلوان.

فـي طريـق العـودة، كان أبوسـكر يقـود التوكتـوك، صامتـا كقبـر، لـم يكـف عـن التدخيـن طـوال الطريـق، حـاول مسـعود أن يغيـر مـن حالتـه المزاجيـة، بتبـادل النـكات والضحـكات، لكنـه أدار المذيـاع، حتـى يصـم أذنـه، عـن أي محـاولات للتهدئـة، فظهـر صـوت فريـد الأطـرش يغنـي.. خليهـا علـى الله.. فابتسـم وقـال

ـ حتى أنت يا فريد

اسـتمر أبوسـكر فـي القيـادة، مسـتمتعا بصـوت فريـد، لكنـه توقـف فجـأة مـن جديـد، وأغلـق المذيـاع، والتفـت إليهمـا، فوجدهمـا يتبـادلان القبـلات فـي نشـوى، فتوقفـا عـن تبـادل القبـلات، على صوتـه الغاضب

ـ جـرى إيـه يـا مسـعود.. أنـت فاكرنـي أريال.. مـا تحتـرم نفسـك يـا جـدع.. ده توكتـوك مـش ماخـور

شـعرت شـربات بالخجـل، فطأطـأت رأسـها، وهمسـت فـي أذن مسـعود، فطلـب مـن أبوسـكر الانتظـار، فنـزلا وتوجهـا، إلـى أقـرب سـوبر ماركـت علـى الطريـق، واشـتريا كميـة كبيـرة مـن الأطعمـة والحلويـات، وعـادا إلـى أبوسـكر مـن جديـد، فواصـل السـير حتـى وصـل حلـوان، نزلـت شـربات بالقـرب مـن بيتهـا، واسـتكمل أبوسـكر السـير حتـى وصـل إلـى القصـر، نـزل مسـعود، حامـلا أكيـاس الطعام، بينمـا بقـى أبوسـكر بداخـل التوكتـوك.

دلـف مسـعود إلـى القصـر، طـرق غرفـة أم سـكر، ففتحـت البـاب بسـرعة، بـدون أن تسـأل عـن الطـارق، جذبتـه إلـى داخـل الغرفـة،

وقفت أمامه وتنهدت قليلا، بينما بناتها نائمات، أعطاها أكياس الطعام، اقتربت منه، حتى كادت أن تلتصق به، حاول أن يتملص منها، لكنها كممت فمه، وهمست في أذنه

ـ عتريس عرف إنكم رجعتم البنت.. سأل عنكم.. خلي بالك من نفسك

شعر مسعود بالخوف، يزلزل كيانه، ففكر في الاستعداد للمواجهة، هم أن يخرج، لكنه تذكر الأموال التي أعطاها له شوقي الجوهري، فأخرجها من جيبه، ووضعها في يد أم سكر، وطلب منها أن تشتري ملابس لأولادها، فرحت بها كثيرا، كادت أن تزغرد من الفرحة، فمنذ زمن طويل، لم تمسك بين يدها أموالا، سألته عن أبوسكر، فأخبرها بأنه راقد في التوكتوك كالعادة، طلب منها، أن تخرج له بطانية ثقيلة، لتحميه من البرد، لم تستطع أم سكر، أن تفوت تلك الفرصة، دون أن تقتنص من مسعود حضن، يبرد نار شوقها، فأبوسكر قد تناسى تلك المشاعر، منذ أن قدما إلى ذلك القصر، بعدما كان لا يفكر إلا في ممارسة العشق، حتى أنجبت منه، خمس بنات في خمس سنوات متتالية، وكانت في انتظار المزيد، شعر مسعود بمدى حرمانها، ورغبتها في الاستمتاع بحضنه، فلم يحرمها رغبتها تلك، احتضنها بعنف، اعتصر جسدها بقوة، مسح على جسدها، أعطاها عدة قبلات ساخنة، شعر بسكر تتحرك، وتفيق من نومها، فقبل رأس أم سكر، ثم تركها وخرج من الغرفة.

خرجت أم سكر، إلى زوجها الراقد في التوكتوك، فوجدته نائما كطفل صغير، بينما السيجارة التي يدخنها، ما زالت مشتعلة بين أصابعه، أخذتها برفق، سحبت منها نفسا طويلا، ثم ألقتها على الأرض، وغطته بالبطانية، فأستيقظ منتفضا، حينما لمست يدها جسده، فتح عيونه الواهنة، فوجدها أمامه، مازالت نضرة وشهية، أمسك بيدها، وجذبها نحوه برفق، فرحت حينما رأت في عينيه رغبة فيها، فاقتربت منه واحتضنته، شعرت بدموعه تنساب على وجنتيه، فقالت في ذعر

ـ مالك يا أبو سكر..

ـ سامحيني يا أم سكر.. أنا عارف أن وجودي معاكم ذي عدمه.. بس لازم تقدري اللي حصلي

ـ ما تقولش كده يا أبو سكر.. مهما حصل أنت الحيطة اللي بنتسند عليها..

شعر برغبة في احتضانها أكثر، فجذبها نحوه برفق، أحتضنها بنشوة، وغرقا تحت البطانية.

• • •

٢٣

دخلت هالة على أبيها، تحمل نسخة من جريدة المستقبل، فوجدته يفرد مذكرات ليليان بشرى أمامه، يقرأ فيها بنهم (... رغم مخاوفي ما افتضاح أمر سرقة المجوهرات، غير أن الأميرة، كان لديها ما يشغلها، تلك النيران المستعرة، بين الخديوي وعرابي في الداخل، والانجليز الذين يحاصرون شواطئ الإسكندرية، حاولت الأميرة أن تخفف وطأة ما يعانيه، رغم اعتراضها على أسلوبه، في الارتماء في أحضان الانجليز، والعداء الواضح بينه وبين عرابي، فالخديوي يطالب عرابي، أن يسلم طوابي الإسكندرية إلى الانجليز، وعرابي يرفض، أن يرفع الرايات البيضاء، فوق شبر من أرض بلاده....) اقتربت هالة من والدها، وفردت جريدة المستقبل أمامه، التفت إليها وابتسم، حملق في التحقيق الصحفي، سر اختفاء مجوهرات الأميرة أمينة إلهامي زوجة الخديوي توفيق، قرأه بتركيز شديد، ثم خلع نظارته، ونظر إليها في إعجاب، واخبرها انه ممتاز كالعادة، فطوقت عنقه، وقبلت رأسه، وأخبرته أن رئيس التحرير، أعطاها مكافأة، سألها مراد سلام في دهشة

ـ أنت جبتي صور المجوهرات دي منين يا هالة؟

ـ من الإنترنت طبعا..

تنهد وسرح قليلا، شعرت هالة بأن والدها، قد شرد بعقله بعيدا، فسألته في خوف

- في إيه يا بابا.. سرحت في إيه؟

غير من ملامح وجهه، التي بدا عليها القلق، تأمل صورة الأميرة أمينة، بوجهها الأبيض الممتلئ، الذي لم ينقص من جمالها، بل زادها روعة وفتنة، وشعرها الناعم، الذي عقدته بتاج فوق رأسها، وذلك العقد الكبير، الذي يزين رقبتها البيضاء الممتلئة.

- جميلة الأميرة أمينة.. مامتك واخده منها كتير.. عارفه إنهم لقبوها بأم المحسنين، بسبب انخراطها في العمل العام.. وكفالة المساكين والمرضى في الجمعيات الخيرية... كانت أميرة عظيمة

- يا بابا يا حبيبي.. ما تغيرش الموضوع.. أنت قلقان من حاجة..

ابتسم، وقام من كرسيه وأحتضنها، في محاولة لإفراغ ما يدور في عقله، مسح على شعرها، نظر في عينيها، قال والخوف والتردد يلمعان في عيونه

- أكيد اللصوص اللي معاهم الخريطة.. شافوا التحقيق ده

شعرت هالة بالخوف، ولكنها ابتسمت لإزالة الخوف عن والدها

- قصدك بكده.. إنهم وصلهم أننا عارفين الحكاية ومعانا المذكرات

- أو معانا نسخة من الخريطة.. وبكده هيحاولوا يوصلولنا

- أو يحاولوا يخلصوا حفر... وياخدوا الصندوق ويهربوا..

ـ إحنا محتاجين عيون لينا داخل القصر.. عشان نعرف الدنيا فيها إيه هناك..

قالت هالة في فرح، بعدما تذكرت مسعود، الذي رأته في القصر.

ـ مفيش غيره.. مسعود..

ثم ضربت على رأسها، شعرت بخيبة أمل، من التوصل إليه، وأردفت

طيب وده هاوصله أزاي بس؟

ـ حاولي تتصرفي وبسرعة.. الوقت مش في صالحنا..

• • •

٢٤

عـاد مسـعود إلـى غرفتـه، تتراكـم علـى رأسـه الهمـوم، بعدمـا رأى الغنـى الفاحـش، الـذي تعيـش فيـه، تلـك الطبقـة المترفـة مـن المجتمـع، بينمـا هنـاك طبقـة عريضـة، تعيـش حيـاة التشـرد والفقـر، أليـس الجميـع أبنـاء وطـن واحـد، يعيشـون فـوق أرضـه وتحـت سـماؤه، فلمـاذا هـذا التفـاوت الكبيـر بينهـم، لمـاذا تصـب كل الثـروات، فـي جيـوب أنـاس بعينهـم، وباقـي أبنـاء المجتمـع، يعيشـون تحـت خـط الفقـر، لا يجـدون قـوت يومهـم، يحاربـون مـن أجـل لقمـة العيـش، لقد رأى نفس الحسرة في عيون شربات، التـي لا تريـد مـن الدنيـا، غيـر غرفـة لهـا بـاب وسـقف. لمـاذا لا ينظـر أغنيـاء هـذا الوطـن، إلـى فقـراءه نظـرة شـفقة؟!

رفـع وجهـه إلـى السـماء وبكـى، يشـكو إلـى الله حالـه، لمـاذا تركـه أبـوه فـي أحشـاء أمـه وهـرب؟، ذلـك الأب النـذل، الـذي يغـرق مـع أولاده فـي النعيـم، تـاركا فلـذة كبـده، يعانـى حيـاة الفقـر والتشـرد، لـم يفكـر يومـا أن يبحـث عنـه، أن يمـد لـه لقمـة، تسـد جوعـه، لـم يتـرك لـه سـوى اسـمه، الـذي لـم يغنـي عنـه شـيئا

فجـأة هجـم عليـه رجـال الخديـوي، واقتـادوه إلـى غرفتـه. لقـد فهـم مسـعود، كيـف وصلـت أخبـاره إلـى الخديـوي، إنـه عبـاس، لأول مـرة

يـراه واقفـا، بجـوار الخديـوي كظلـه، عـاد ليمـارس دور كلـب القصـر، يـدس أذنـه وعيونـه، فـي كل ركـن بداخـل القصـر، وقـف مسـعود بيـن يـدي الخديـوي، فـرأى الشـرر يتطايـر مـن عينيه،وملامحـه مفعمـة بالشـر، بصـق فـي وجـه مسـعود، وقـال بغضـب

كنت عارف انك وسخ.. ومستحيل تنضف..

رأي مسـعود، الرجـال الذيـن كانـوا يخطفـون بنـت الجوهـري، واقفـون بيـن يـدي الخديـوي

ـ أنـت فاكـر إنـي معرفـش كل نملـة فـي القصـر بتعمـل إيـه.. أنـا ليـا عيـون.. المغفليـن مـن أمثالـك مـش شـايفينهم.

ـ خير يا خديوي.. أنا عملت إيه بس..

ـ إستعبط يا روح أمك!.. قوليله أنتي يا نونو..

قالهـا عتريـس وهـو يشـير إلـى نـوال، الجالسـة بجـواره، فقامـت واقتربـت مـن مسـعود.

ـ البنت اللي أنت هربتها يا واد.. بنت شوقي الجوهري

قـام عتريـس واقتـرب مـن مسـعود، فتسـمر فـي مكانـه، ابتلـع ريقـه بصعوبـة، صفعـه عتريـس صفعـة قويـة، أفقدتـه توازنـه، فسـقط علـى الأرض، لكنـه قـام بسـرعة خاطفـة، ليـرد الصفعـة فـي غضـب، فالتـف حولـه رجـال عتريـس، احتضنـه عبـاس بقسـوة، ثـم دفعـه فالتصـق بالجـدار، هـم أن يباغتـه بلكمـة فـي وجهـه، ليمنعـه مـن فعـل، أي تصـرف ضـد عتريـس، لكـن مسـعود عاجلـه، بلكمـة أسـقطته أرضـا،

فالتف حوله رجال عتريس وقيدوه بأيديهم، اقترب منه عباس، ولكمه في بطنه ووجهه، فتناثرت الدماء من فمه، نظر إليه عتريس في غضب

ـ عارف البنت دي كان مرصود لها كام يا أهبل.. نص مليون أهيف.. يعني أنت ضيعت عليا سبوبة.. بتحصل كل قرن من الزمن.. بغباوة أمك.. قولي بقه أعمل فيك إيه..؟

اقتربت نوال من مسعود، الذي لجمه العرق، وأشارت إلى عباس أن يتركه، وتحسست جسده

ـ مش خسارة فيه الموت يا خديوي

ـ كلب وراح.. زى أي كلب بيعض أيد سيده.. وربنا يبارك في الرجالة..

ـ طيب ما تديله فرصة يا خديوي..

ـ عطيته كتير يا حبي.. بس الوسخ هيفضل طول عمره وسخ

ـ زي ما هرب البت يرجعها.. ويا دار ما دخلك شر

تحير مسعود، وأسند ظهره إلى الحائط، دارت الدنيا برأسه، تأمل ملامح عتريس، الذي أبدا علامات الرضا، عن اقتراح نوال، وعباس يعقد ذراعيه المفتولين، على صدره، ويبتسم بشماتة

ـ بس يا خديوي.. ده صعب.. اخطف بنت من أهلها.. أزاي ده بس!

ـ ما قولتلك يا نونو.. ده جنس خسيس..

ضربته نوال على كتفه، وقالت في سخرية

زي ما هربتها يا واد..

ـ طيب ما اللي خطفوها قبل كده.. يخطفوها تاني..ونخلص.

نظر إليه الرجال الأربعة، وبدت عليهم علامات الحيرة،رافضين تكرار تلك المحاولة من جديد

ـ إحنا عارفين يا خديوي.. إننا غلطنا.. بس جينا واعترفنا بغلطنا.. لكن الباشا اللي أتفق معانا.. لما عرف أن البنت رجعت لأهلها، عرض يوصل المبلغ مليون..

نفخ عتريس دخان سيجارته، في وجه مسعود بغيظ شديد، وصرخ في الرجال الأربعة

ـ انتوا حسابكم معايا بعدين.. غوروا انتوا دلوقتى.. داهية تاخدكم جنس ملعون

انصرف الرجال الأربعة، وهم يتابعون مسعود، الذي أصبح في وضع، لا يحسد عليه، التفت إليه عتريس، ثم أشار إلى عباس، فاقترب منه، همس في أذنه، ثم تركه وجلس على سريره، بجواره نوال، وأشار إلى مسعود في غضب

ـ قدامك يومين من دلوقت.. والبنت تكون عندي.. فاهم.. يلا غور من وشي.

• • •

١٢٥

جلس مسعود بجواره شربات على شاطئ النهر، يتابعان صفحة النيل الممتدة، والصمت هو سيد الموقف، يفكران في تلك الورطة، التي وقعت فوق رأسهما، ما بال الدنيا، تقف أمام حلمهما الصغير، إنهما لا يريدان من الدنيا، سوى غرفة صغيرة، يعيشان تحت سقفها. مسعود يفكر في الهرب، ولكن إلى أين يهرب؟، فهو لا يعرف مكانا سوى حلوان، ولا يعرف أناس غير أهلها، ولا يملك سكنا غير القصر. وشربات تموج الأفكار بعقلها، ماذا لو هرب مسعود بعيدا، ماذا لو تخلص منه عتريس، في لحظة غضب، لن تستطيع العيش بدونه، فمسعود كل أملها في الحياة. نسي الاثنان تلك الجريدة، التي تلف فيها شربات، الطعام الذي أحضرته، فكلاهما ليس لديه رغبة في الطعام، فتحت شربات الجريدة، وأخرجت رغيفا، ناولته إلى مسعود، فنظر إليها في حنو، وابتسم ابتسامة صغيرة، رافضا تناول الطعام، ومع إلحاحها الشديد، أخذه منها، ثم سحب ورقة الجريدة، ليضع فيها الرغيف من جديد، لكنه ما أن رأى ورقة الجريدة، حتى اتسعت عيناه، تسارعت نبضات قلبه، دقق في الصورة الكبيرة، التي تحتل نصف صفحة الوفيات، الوجه ليس غريبا عليه، نزل بعيونه إلى

الاسم، فتوقفت نبضات قلبه، هرعت الدموع من عينيه، شهق شهقة عظيمة، أرعبت شربات، فسحبت الجريدة من بين يديه، دققت فيها، لكنها لم تفهم شيئا، فسألته في ذعر

في إيه.. مالك يا مسعود؟ الجور نال ده فيه إيه؟

إنها صورة والده، لقد عثر عليه أخيرا، ولكن بعد أن أصبح، جثة هامدة بلا قيمة، حزن كثيرا، رغم أنه بالنسبة إليه، قد مات منذ زمن بعيد، منذ أن تركه في أحشاء أمه، ولم يفكر يوما أن يبحث عنه. تفحصت شربات الصورة والاسم، ثم أطلقت زغرودة قوية، رنت في أرجاء المكان، نظر إليها مسعود بغضب، وصفعها على وجهها، صفعة قوية.

ـ شمتانه في موت أبويا يا بنت الكلب!

نفر الدم في وجه شربات، تحجرت الدمعة في عينيها، حضنت وجهها بكفيها، وصمتت كقبر، لأول مرة، يتطاول مسعود عليها، بالضرب والشتيمة، لم تكن تتوقع، أن يفعل ذلك. شعر مسعود بمدى الخطأ، الذي اقترفه في حقها، مال عليها وقبل رأسها معتذرا

ـ سامحيني يا شربات.. بس أنتي اللي غلطانه.. أقولك أبويا مات تزغردي..أما أنتي واطية

حاولت شربات إقناعه، أنه بموت والده، أصبح من أصحاب الأملاك، أليس له حق في ميراث أبيه؟ ويجب عليه أن يأخذه، إنها ملايين الجنيهات، التي ستكون بمثابة، حلا سحريا لكل مشاكله، بل بداية قوية، يبدأ بها حياته، فيصبح له مشروعا وبيتا وأسرة، يعيش حياة مستقرة، بدلا من مرارة الذل، وحياة التشرد، التي يعيشها في داخل القصر.

هرش مسعود في رأسه، وسرح بخياله، فشربات معها كل الحق، فإذا لم يستفيد من حياة والده، فلابد أن يستفيد من موته، احتضن رأس شربات وقبلها، لكن ظل السؤال، الذي لم يجد له جوابا، كيف سيصل إلى أهله، وهو لا يعرف عن والده، سوى اسمه المدون في شهادة ميلاده!

• • •

١٢٦

ألقى مسعود بجسده، على أرضية غرفته الباردة، التي يفرشها بقطعة كبيرة من الكرتون، وبجواره كوب الشاي الساخن، وبيده سيجارة أوشكت على الانطفاء، حملق في السقف المزين بالورود، التي مسحت الأيام الكثير من أغصانه، لم يشعر إلا ونهاية السيجارة، تلسع أصابعه، فألقاها على الأرض بفزع، عدل من جلسته، أخذ كوب الشاي، ارتشف منه عدة رشفات متتالية، بينما دخلت سكر بمريلتها ألكحلي، تحمل حقيبتها المدرسية، اقتربت منه

ـ في ضيفة عايزة تسلم عليك

ـ ضيفة..!

ـ مس ندى.. اللي أنت رجعتلها شنطتها.... جايا تشكرك بنفسها

خرجت سكر ثم عادت، وبيدها تلك السيدة، التي سرقت حقيبتها، أطلت عليه كشمس منتصف النهار، تطلع إليها، ابتسمت في وجهه، فظهر بياض أسنانها، مدت يدها وسلمت عليه، شعر بالدفء يجتاح جسده، شعر بالسعادة، لأنه يقف أمام معلمة، منذ أن كان طالبا في المدرسة، كان مستواه يبشر بمستقبل معقول، لكن ظروفه السيئة، أطاحت بكل طموحاته، فاستطاع بالكاد، أن ينهي

المرحلة الإعدادية، لكنه بأي حال من الأحوال، يستطيع أن يقرأ ويكتب، رغم عدم حصوله على شهادة.

ـ أنا جايا أشكرك على اللي عملته معايا.. الشنطة كان فيها فلوس القرض.. اللي عملت بيه عملية لابني.. ولولا إنك رجعتهالي... إبني كان هيموت..

شعر مسعود بالسعادة، رغم دموع ندى، التي أغرقت وجهها، حاولت أن تداريها، فمسحت على رأس سكر، التي نظرت إلى مسعود بفخر، فبادرها قائلا:

ـ معلش يمكن أنتي شايفانه وحشيين عشان عايشين هنا، لكن الظروف هي اللي اضطرتنا لكده

ـ ما تقولش كده.. سكر دايما تشكر فيك.. وبتعتبرك زي أبوها.. سكر دي زي بنتي...وأنا عارفه كل ظروفها.. وبحاول أساعدها قدر الإمكان..

أمسكت سكر بيد ندى وقبلتها، فأمسكت برأس سكر، ومسحت على شعرها، ثم استأذنت في الخروج، أمسكت بيد سكر، وخرجا سكر من الغرفة.

فتش مسعود في الصندوق الخشبي، الذي يخبئ بداخله كل أوراقه، وثيقة زواج أمه، وشهادة ميلاده، وتلك الصورة التذكارية، التي تبقت من تلك العلاقة الغابرة، بين أبيه وأمه، فتش في وثيقة

الـزواج عـن عنـوان والـده، فلـم يظهـر أمامـه، سـوى مركـز البـداري محافظـة أسـيوط

ألقـى بالوثيقـة فـي الصنـدوق مـن جديـد، فاصطدمـت بآلـة التصويـر، فتذكـر وعـده لهالـة، أن يعيدهـا إليهـا، لكـن ليـس لديـه رغبـة، سـوى أن يفتـش عـن عنـوان والـده، لكـي يسـافر إلـى أهلـه، ويطالـب بحقـه فـي ميـراث أبيـه، حلـم بكـم الأمـوال والأراضـي، التـي سـيحصدها، فدائمـا مـا كانـت أمـه تخبـره، بـأن والـده ثـري مـن أثريـاء الصعيـد، أمسـك بالجريـدة مـن جديـد، قـرأ النعـي الـذي طمسـت بقـع الزيـت حروفـه، فـلا يظهـر سـوى اسـم والـده، المكتـوب بخـط عريـض، وعبـارة (.. والعـزاء بمنـزل العائلـة بأسـيوط)، كيـف يصـل إليـه؟!

تجـول فـي الغرفـة، حتـى أرهقـه التفكيـر، فألقـى بجسـده علـى الأرض، أخـرج علبـه سـجائره، يشـرب و ينفـث دخانهـا فـي الهـواء، يرسـم أشـباحا مـن الدخـان، يطاردهـا بعيونـه، حتـى استسـلم للنـوم، لكنـه مـا لبـث أن أفـاق مـن جديـد، علـى وقـع أقـدام سـكر، التـي دخلـت عليـه الغرفـة، فوجـدت الصنـدوق مفتوحـا وبداخلـه آلـة التصويـر، وأوراقـه مبعثـرة علـى الأرض، وعلامـات الحيـرة علـى وجـه مسـعود، سـألته عـن سـب شـروده، فاخبرهـا بالحيـرة التـي وقـع فيهـا، فشـله فـي الوصـول إلـى عنـوان أهلـه، فأمسـكت بـالأوراق وفحصتهـا، ثـم أمسـكت بالجريـدة، نظـرت إليـه وابتسـمت، أخبرتـه انـه مـن السـهل، الحصـول علـى العنـوان، عليـه أن يذهـب إلـى جريـدة الأهـرام، ويقابـل

المسئول عن صفحة الوفيات، ويحصل منه على العنوان، نظر إليها مسعود بفخر شديد، قبل رأسها في سعادة، ففرحت سكر، ولكنها تركته بعدما سمعت صوت أمها تنادي عليها.

أخرج مسعود آلة التصوير من الصندوق، لقد لمعت في عقله الفكرة، عليه أن يسرع، في الصباح الباكر إلى هالة، يعطيها آلة التصوير، ويطلب منها أن تساعده، في الوصول إلى أهله، فمن المؤكد، أن لديها زملاء، يعملون في جريدة الأهرام.

بمجرد أن فرد جسده، محاولا النوم، حتى هجم عليه، مجموعة من رجال عتريس، واقتادوه إلى غرفته. كان عتريس جالسا على مقعده المفضل، والشرر يتطاير من عينه، وبجواره عباس ونوال، اللذان يقفان بجواره، كأسدي قصر النيل، أشار عتريس إلى مسعود غاضبا

ـ ممكن أعرف حيلتها عمل إيه مع البت.. السبوبة على وشك الطيران.. ولو طارت مش رقبتك بس اللي هتطير.. دي رقبة مزتك شربات كمان..عشان ترفرفوا سوا في العالم الآخر

ـ وأنا أعمل إيه بس يا خديوي..

ـ أعمل زى الناس يا روح أمك

نظر إليه مسعود في غضب.. ونوال تضحك..

ـ علطول تفهمني غلط.. قصدي دور على مصلحتك.. أنا عايزك

تغطس وتقب..والبت تكون عندي بكرة.. مليش فيه..

ـ بس أنا عمري ما خطفت قبل كده

فقامت نوال وضربته في كتفه بعنف

ـ أومال شاطر بس ترجع المخطوفين.. أبو البت عكمك كام يا واد

نظر إليه عتريس وكأنه قد تذكر شيئا

ـ.. معقولة شوقي الجوهري أخد البت كده.. وما عطكتش حلاوة رجوعها

ـ والله يا خديوي الراجل عرض بس أنا رفضت..

ـ ليه صعب عليك.. ده ملياردير ولو طلبت مليون.. كان عطهوملك.. وكاش على الطربيزة

ـ ورحمة أمي يا خديوي ما أخدت منه قرش..

ـ خلاص مصدقك طالما حلفت برحمة أمك.. المهم البت تكون عندي.. غور من وشي

خرج مسعود من غرفة عتريس، والدنيا تدور برأسه، كيف سيتصرف، في تلك الورطة التي أحلت به، لم يكن يهمه أن تطير رقبته، إنما كان كل خوفه على شربات، حبيبة قلبه، التي ضحت بكل شيء، من أجل أن تبقى معه.

لكنه وبعد تفكير عميق، قرر أن يظهر لعتريس، وجه مسعود الشرير، لن يلعب مع الكلب، بل لابد أن يجلب إليه، أسد الغابة، ليفترسه في عقر داره.

هـرول مسـعود إلـى غرفـة أبوسـكر، فوجـده جالسـا علـى الطبليـة، يتنـاول الطعـام، وسـط بناتـه وزوجتـه، التـي لـم تخـرج إلـى مسـعود كعادتهـا، خـرج إليـه أبوسـكر، يمسـح فمـه بظهـر يـده، وتفـوح منـه رائحـة السـمك.

ـ فـي إيـه يـا مسـعود.. تعالـى أتعشـى معانـا.. فاضلـة خيـرك سـمك مشـوي..

نظـر إلـى أم سـكر، التـي ارتسـمت علـى وجههـا، علامـات السـعادة والرضـا، فقـال مداعبـا أبوسـكر

ـ لا... مليش في الفسفور..

نظـرت أم سـكر إلـى مسـعود وضحكـت، فـردت أصابـع يدهـا فـي وجهـه، كنـوع مـن درء الحسـد، فـأردف مسـعود، وهـو يسـحب أبوسـكر بعيـدا، ويهمـس فـي أذنـه

ـ كنت عايزك في مشوار بالتوكتوك..

مسـح أبوسـكر يـده فـي ملابسـه، وأشـار إلـى زوجتـه، إنـه سـيخرج فـي مشـوار، وسـيعود بسـرعة، فطلبـت منـه ألا يتأخـر، فنظـر إليهـا مسـعود، وبابتسـامة عريضـة قـال

ـ ما تخافيش هرجعه بسرعة.. عقبال ما تعملي الشاي..

• • •

٢٧

قبيل الفجر، بينما رواد القصر في نوم عميق، وقفت سيارة جيب، أمام باب القصر، نزل منها أربعة رجال مسلحين، توجهوا مباشرة، إلى غرفة عتريس، الغارق في نومه، بجوار نوال، شعر بيد تجذبه من ملابسه، فاستيقظ مذعورا، أشار إليه أحدهم بمسدسه، وأمره أن يتحرك معهم بهدوء، فقام رافعا يديه لأعلي، استيقظت نوال فزعة، أطلقت صرخة قوية، فعاجلها احدهم، بضربة على رأسها، فتكومت في مكانها، وكتمت صرختها، اقتادوا الخديوي عتريس إلى السيارة، وانطلقوا به بعيدا عن القصر.

في أحد مخازن الجوهري، جلس عتريس مقيدا، على مقعد خشبي، وحوله الجوهري ورجاله، اقترب منه الجوهري، نفخ دخان سيجاره الكوبي في وجهه، وقال بغضب أرعب عتريس

ـ معقول عتريس الطيب.. يتهور بالشكل ده.. ويخطف بنتي.. وكمان يساومني عليها

ارتعد عتريس من الخوف، حاول أن يتحرك من مقعده، فوضع أحد الرجال، مسدسه على رأس عتريس، فاستقر في مكانه مذعورا، رد بصوت واهن، وجسده يرتعد من الخوف

ـ أقسم بالله ما حصل

أشار إليه الجوهري بسيجاره الكوبي، وقال محذرا

ـ ما اتعودتش حد يكدب عليا..

ـ والله يا باشا دول شوية مقاطيع.. اكتشفت بالصدفة.. أنهم خاطفين بنت.. وربنا ما كنت أعرف أنها بنت سعادتك.. ولما عرفت.. رجعتها مع مسعود وأبوسكر.. حتى اسألها..

دنى الجوهري من عتريس، أمسك بشعر رأسه الأشيب، وحركه بعنف، وقال غاضبا

ـ عتريس.. ابعد عن بنتي.. وإلا اقسم بالله.. أهد الخرابة اللي أنت عايش فيها على دماغك

ـ حاضر يا باشا.. إحنا عايشين بنفس سعادتك.. والعيال دول أنا طردتهم من القصر

ترك شوقي رأس عتريس، وبدأ يرغبه حتى يكسبه في صفه، بعد أن هدده بالقتل.

ـ الانتخابات على الأبواب.. ولا عايزني أشوف حد غيرك... يساعدني في الحملة الانتخابية

اطمئن عتريس وشعر أن السكين، التي كانت تطوق رقبته، رفعت وحل محلها، طوقا من الياسمين وقال في سعادة

ـ أنا خدامك يا باشا.. هو إحنا لينا بركة إلا سعادتك.. يمثلنا في البرلمان..

أشار شوقي إلى رجاله، ففكوا قيود عتريس، أخرج الجوهري من جيبه، رزمة من الأموال، ووضعها في جيب عتريس، فابتسم وقبل يد الجوهري، ودعا له بطول العمر.

خرجوا بعتريس من المخزن، وأركبوه السيارة الجيب، وعادوا به إلى القصر من جديد.

كان مسعود يراقب مدخل القصر، حينما عاد عتريس، مطأطأ الرأس، يترنح وهو يصعد درجات السلم، فتنفس الصعداء، لقد انتهت تهديدات عتريس إلى الأبد، لقد أستطاع إسكاته، والتفرغ لما هو آت، البحث عن ميراث أبيه، والسفر للحصول عليه، حتى ولو كان في الشلالات.

• • •

١٢٨

في الصباح الباكر، وقبل أن يستيقظ رواد القصر، ارتدى مسعود أجمل ما يملك، حمل آلة التصوير، وكل الأوراق التي يمتلكها، وقرر الذهاب، إلى الجريدة ليقابل هالة.

كانت أم سكر تقف على باب غرفتها، وحولها بناتها، يرتدون ملابس المدرسة، اقتربوا من مسعود في ذهول، من جمال طلته، قالت أم سكر

- إيه الشياكة دي.. يا مسعود.. وربنا ما عرفتك!

فرحت سكر بمسعود، الذي يبدو عريسا في ملابسه

- إيه ده يا عم مسعود.. أنت شكلك حلو أوي

شعر مسعود بالخجل، نظر إلى الأرض، فأشارت أم سكر إلى بناتها، أن يسرعوا إلى المدرسة، لقد أوشك طابور الصباح على الانتهاء، فانصاعوا إلى أوامرها، وانصرفوا إلى خارج القصر، بينما اقتربت أم سكر من مسعود، تطري على وسامته.

- لابس ومتشيك كده ورايح على فين؟!

- رايح أشوف عنوان أهلي في الصعيد

- وإيه اللي فكرك بيهم دلوقت؟!..

أخرج لها الجريدة، قرأت النعي، شعرت بالحزن من أجله، أثنت

على صورة والده، اقتربت من مسعود، ربت على كتفه، وقبلت خده

ـ شد حيلك يا مسعود.. البقية في حياتك

تركها مسعود، وهرول إلى خارج القصر، أسرع إلى محطة حلوان، رأى شربات تطل عليه، كوردة بريئة متفتحة الأغصان، ينير ضوء الشمس، وجهها الأبيض، تفتح عينيها الواسعة، فتشرق شمسه، شعر بمدى خوفه عليها، الخديوي لا يلقي بتهديداته من فراغ، لقد تخلص من كل الذين وقفوا في طريقه، ولا يدري لماذا صبر عليه كل هذا؟ يبدو أن فضل أمه، كان عليه كبيرا، أمه التي يراها الآن، متمثلة في شربات، التي تخاف عليه، تحتضنه، تطعمه بيدها، وكأنه وليدها الصغير. رأته شربات فهرولت نحوه، فرحة بوسامته غير العادية

ـ يعني صاحي بدري.. ومستحمي ولابس اللي على الحبل..خلاص هتروح لأهلك

ـ هو أنا أعرف طريق أصلا

ـ طيب والعمل يا مسعود.. أتصرف

ـ أنا رايح أقابل الأستاذة هالة.. يمكن تقدر تساعدني

ـ ومين هالة التانية دي.. اللي أنت رايح تقابلها.

ـ بطلي غيرة يا مجنونة.. دي الصحفية.. اللي هاعرف منها عنوان أ هلي

نظـرت إليـه فـي غضـب، ابتعـدت عنـه عـدة خطـوات، ثـم أعطتـه ظهرهـا، نـادت علـى المناديـل، اقتـرب منهـا وأمسـك بيديهـا، سـألها عـن سـبب تجهمهـا، أليـس هـذا مـا تريـده منـه، أن يفتـش عـن ميـراث أهلـه

ـ مش خلصنا.. ولا قلبك دق من جديد.. يا روميو.

ضحك مسعود وضربها على رأسها

ـ روميو إيه يا مجنونة.. إيه جاب لجاب.. وهي دي نوال كمان

ـ هـو أنـت عاتـق.. يمكـن الصنـارة غمـزت وأنـت حيلـوه كـده.. وفـي ورث منتظـرك هيحليـك اكتـر

ـ أنـا حيلـوه.. ربنـا يجبـر بخاطـرك.. أسـيبك بقـه.. وأروح أشـوف هاتصـرف أزاي

أمسـكت بذراعـه، وجذبتـه نحوهـا، لتمنعـه مـن التحـرك، وقالـت فـي إصـرار

ـ رجلي على رجلك يا روح أمك..

نظـر إليهـا مـن أسـفل إلـى أعلـى، عـض شـفتيه فـي غضـب، وأزاح كتفهـا بيـده

ـ هتروحـي أزاي بشـكلك ده.. أنـا رايحلهـا الجورنـال.. كـده مـش هيدخلونـا أبـدا

نظـرت إليـه بغضـب، والدمـوع تـكاد تهطـل مـن عيونهـا، شـعرت بمـدى ضآلتهـا فـي عيونـه

ـ بقيت عره دلوقت يا مسعود.... أومال لما تأخد ميراثك هتعمل إيه؟!

ـ والنبي نبرك ده اللي هيودينا في داهية.. غوري ألبسي حاجة عليها القيمة.. وأنا هانتظرك

أسرعت شربات إلى بيتها، ألقت بكرتونة المناديل على سريرها، فتحت دولاب ملابسها، الذي يتكون من دلفه واحدة، وعليه مرآة باهته، نظرت في المرآة، تأملت ملامح وجهها، وتحسست صدرها المكتنز وخصرها الرشيق، نزعت الوشاح عن رأسها، وفردت شعرها الأسود الطويل، ونزعت عنها جلبابها الأسود الضيق، تأملت بياض جسدها بقميصها الأحمر، فتشت بين ملابسها عن فستان يليق، وينزع عن مسعود، تلك النظرة المتدنية، التي جرح بها كبريائها، تذكرت ذلك الفستان الأحمر، الذي أعطته إياها، إحدى الجمعيات الخيرية، في موسم عيد الفطر، ارتدته مرة واحدة فقط، لكنها خلعته بسرعة، خوفا من نظرات الجيران، الذين سيلقون عليها عبارات الاستهزاء، لكنها يجب أن ترتدي الفستان الأحمر، لكي تعطى لمسعود، درسا في حسن تقديرها. أخرجت الفستان، ونزعته من كيسه الشفاف، الذي وضعته فيه، لكي تحميه من تراب البيت.

فستان أحمر قصير بعض الشيء، ضيق من أعلى الصدر ومن

الخلف، غير مكشوف، أقرب إلى الملابس الشتوية الخفيفة، ارتدته وتحسست جسدها، في غرور أنثوي ملحوظ، مشطت شعرها، ثم طوقته بوشاح أحمر،غسلت وجهها، ووضعت بعض الأصباغ، مسحت على شفتيها بأحمر الشفاه، فبدت كتفاحة حمراء ناضجة.

ما زال مسعود جالسا على المقهى، ينفث دخان سيجارته في الهواء بغيظ شديد، لقد تأخرت شربات كثيرا، ويجب عليه أن يتحرك فورا، لكي يلحق بهالة، قبل أن تغادر الجريدة، وينتهي اليوم بلا طائل، قام ونادى على صبي المقهى، لكي يعطيه الحساب، أقبلت عليه شربات، وجلست على المقعد المجاور، نظر إليها مسعود في تودد

ـ أي خدمة يا هانم..

ضحكت شربات، وضربته على كتفه، كنوع من الهزار المقبول

أنا شربات يا حبيبي.

• • •

٢٩

وصل مسعود وبصحبته شربات، إلى مبني صحيفة المستقبل، بوسط القاهرة، أبهرهما منظر ذلك المبنى الضخم، الذي يحوي بداخله، عصارة المثقفين والكتاب والصحفيين والمصورين والنقاد، كل هؤلاء الذين يجتمعون، ليخرجوا تلك الصحيفة اليومية، التي كانت أمه تضعها أمامها، على الرصيف لتبيعها، وصلا إلى باب المبنى، فواجههما حارس الأمن، أشار إليهما بالتوقف، وقال بنبرة تهديد

ـ رايح على فين يا أخينا أنت وهيا؟!

ـ داخل أقابل الأستاذة هالة مراد.. وأدي الكارت بتاعها..

نظر الحارس إلى الكارت، ثم تأمل ملامحهما، من أعلى إلى أسفل، ثم قال في تودد

ـ هتلاقيها في الدور الرابع..

كان مسعود فرحا، وهو يحتضن كف شربات، ويصعد بها درجات السلم، متجها إلى مكتب هالة، ظل يستحضر صورتها، ليتذكر ملامح وجهها الجميل، بعيونها العسلية، ووجها الأبيض الممتلئ، وصلا إلى غرفة مكتبها، صالة واسعة ممتلئة، بعشرات المكاتب المتجاورة، وكأنها خلية نحل، الكل مشغول، بتحضير

مادته الصحفية، التي ستطرح على صفحات الجريدة، الهواتف لا تكف عن الرنين، ولا تدري من أين يأتي صوتها.. فتش بعيونه وسط الصالة الواسعة، فرآها جالسة، على مكتبها في آخر الصالة، هرول ناحيتها، وخلفه شربات. كانت هالة منهمكة في كتابة مقالا صحفيا، نادى عليها، فرفعت رأسها عن الأوراق، تأملت ملامحه، فرحت كثيرا برؤيته، لم تنس جميله معها، أمام عتريس، ولم تنس طلب والدها، أن تفتش عن مسعود، لتعرف منه أخبار هؤلاء الرجال، الذين يحفرون في سرداب القصر، وقفت بسعادة وسلمت عليه بحرارة

ـ أنت مسعود بتاع قصر الخديوي توفيق بحلوان صح؟

ـ خدام حضرتك

ـ ومين القمر اللي معك دي؟

ـ دي خطيبتي شربات

ابتسمت لهما وسلمت عليهما، فرحت أكثر، حينما أخرج لها مسعود آلة التصوير، أخذتها منه ووضعتها أمامها، دعتهما للجلوس، ونادت على ساعي المكتب، فهرول نحوها

ـ شوف أستاذ مسعود وشربات يشربوا إيه..

نظر إليهما الساعي من أعلى إلى أسفل

ـ أستاذ.. تشرب إيه يا أستاذ..؟

ـ شاي.. شاي تقيل لو سمحت

ـ طيب والآنسة تشرب إيه؟

ابتسمت شربات، وعدلت من جلستها، والوشاح الذي يحيط برأسها، وقالت بصوت رقيق

ـ شكرا.. عاملة دايت

ضحكت هالة بسخرية، تحسست جسدها الممتلئ، وداعبت شربات بكلمات إطراء.

ـ عامله دايت.. أومال أنا أعمل إيه؟!

أشارت إلى الساعي بالانصراف، ثم شكرت مسعود، على وفاءه بوعده، فبادرها برغبته التي أتى من أجلها، أن تساعده في الحصول على عنوان عائلته في الصعيد.

ـ تحت أمرك.. بس أقدر أساعدك أزاي

حكى لها حكاية أمه، مع والده الثري، الذي هجرها قبل ولادته، وتركه يعاني مرارة الوحدة، على رصيف الحياة، أخبرها عن ذلك النعي، الذي رآه في الجريدة، أخذت منه الجريدة والأوراق وقرأتهم بعناية

ـ بس دي جريدة الأهرام.... النعي ده مش منشور عندنا

شعر بخيبة أمل كبيرة، لقد عول عليها كثيرا، أن تساعده في الحصول، على عنوان أهله في الصعيد، والذي بالتأكيد قد تركه، صاحب النعي مع الإعلان، لكنها أعادت إليه الروح

ـ طيب ثواني، أنا هاتصل بصديق بيشتغل في صفحة وفيات الأهرام، ممكن يقدر يساعدنا

فتهلل وجهه فرحا، أمسكت بهاتفها النقال، واتصلت به.

ـ أستاذ عصام.. أهلا بحضرتك..ممكن أطلب منك خدمة.. ربي يسعدك.. في نعي منشور عندكم في صفحة الوفيات بتاريخ ١٢ أغسطس.. باسم الحاج منصور الدكش.. كنت عايزه أعرف عنوان صاحب النعي بالتفصيل..هو من أسيوط... حاضر انتظر منك مكالمة

نظرت إلى مسعود وابتسمت، فأزالت عن قلبه القلق، الذي انتابه من الفشل، في الوصول إلى العنوان

ـ معلش هاعطلك..انتظر معايا.. نص ساعة كده.. وهيرن يدينى العنوان..

تهلل وجه مسعود، وبادرها بعبارات الشكر، تركته وعادت تستكمل، كتابة المقال الصحفي من جديد، فكرت في سؤاله، عن هؤلاء الرجال، الذين يحفرون في سرداب القصر، لكنها قررت التمهل، حتى لا يقلق من سؤالها، حضر الساعي يحمل الشاي، وضعه أمام مسعود، وقال في أدب جم

ـ أي خدمة تاني يا أستاذة هالة؟

ـ ابعتلي أستاذ محسن لو سمحت

انصرف الساعي، ومرت عدة دقائق من الانتظار، لم يقطعها سوى قدوم محسن، بجسده الأقرب إلى جسد أنثى، جلس بجوارها، وألقى أمامها بعدة صور، فالتفتت نحوه وابتسمت، أخذت الصور

تأملتها بإعجاب، ومحسن يتابع شربات، الجالسة كملاك

ـ يا سلام عليك يا محسن.. أستاذ والله.. ليك عندي مفاجأة

ـ مكافأة أكيد.. ومين المزه الجامدة دي؟

انفعلت شربات، رغم إعجابها بالإطراء، الذي أكد لها، أنها ليست شربات، بائعة المناديل، لكن أسلوبها في الرد، فضح البيئة التي أتت منها، وكشف ما تخفيه تلك الملابس، حركت يدها في الهواء، وقالت بصوت مرتفع

ـ ما تلم نفسك يا روح أمك..

شعر مسعود بالحرج، طلب منها أن تهدأ، وهم أن يقوم، فيفتك برأس محسن، ناظرا إليه بغضب، فأردف محسن في لامبالاة وكأنه معتوه

ـ من الأخ ده.. وشه مش غريب عليا.. مش ده نصاب شبرا

لم يلتفت إليه مسعود، لكنه نظر إلى هالة، معلنا غضبه

ـ إيه اللي بتقوله ده.. ده مسعود.. اللي أنقذنا من الراجل المجنون.. بتاع قصر حلوان

مدت يدها في الجرد، وأخرجت آلة التصوير، وأردفت

ـ جاب الكاميرا وفيها كل الصور.. روح بقه أطبعهم.. عشان نحضر للتحقيق الصحفي ومسعود معانا أهو.. ناخد منه كل المعلومات الضرورية للتحقيق

ابتسم محسن، وقبل رأس مسعود، وقال بصوت أنثوي

ـ حقك عليا يا أخ.. معلش اللي ما يعرفك يجهلك

انصرف محسن تاركا الجميع، في انتظار مكالمة عصام، وهالة تسأل مسعود

ـ ممكن تساعدني في بعض المعلومات عن القصر والناس اللي عايشين فيه..

شرح لها مسعود، كل ما يدور في القصر بالتفصيل، وخصوصا الرجال، الذين يحفرون في مدخل السرداب، وفجأة رن الهاتف، فبلع مسعود ريقه، وهالة تقبل المحادثة

ـ أيوه يا عصام أخرت عليا أوى.. معلش ولا يهمك.. إيه الأخبار.. جبت العنوان..

كتبت العنوان في ورقه أمامها، وأعطتها لمسعود، الذي أخذ العنوان فرحا

ـ لو احتجت أي حاجة.. أديك عرفت مكاني...

في طريق العودة، احتضن مسعود كف شربات، وهما في غاية السعادة، لقد اقترب حلمهما من التحقق، لم يتبقى سوى، أن يذهب مسعود، إلى أهله في الصعيد، ويطالب بحقه في ميراث أبيه، ليعوضه عن سنوات الحرمان والفقر التي عاشها، في الوقت الذي يتمرغ إخوته في النعيم. على الرغم من قلقه الشديد، من ذلك اللقاء المجهول مع إخوته، تظاهر بالثبات، خشي أن يرفض

السفر، فتنعته شربات بالجبان

ـ دلوقت تروح تجهز نفسك.. وإن كان على مصاريف السفر الفلوس موجودة

ـ أنا خايف وقلقان..

ـ أول مرة أشوفك خايف كده يا مسعود.. خايف تطالب بحقك..

ـ أنا عمري ما طلعت بره حلوان ولا سافرت الصعيد.. ودول ناس كبار إحنا مش قدهم

ـ دول أخواتك يا مسعود.. ومش هيرضيهم إنهم يأكلوا حقك.. روح بس جهز نفسك

وصلا إلى حلوان، انطلقت شربات برشاقتها المعهودة، إلى بيت أمها، لتزف إليها البشرى، وأنطلق مسعود إلى غرفته بالقصر، يتملكه القلق والخوف، من ذلك المجهول الذي يفتش عنه، اتفقا أن يتقابلا في الصباح الباكر، على رصيف قطار الصعيد.

• • •

١٣٠

في محطة مصر، وعلى رصيف رقم (١٠)، وقف مسعود حائرا، وسط مئات البشر، في انتظار قطار الصعيد، يحمل حقيبة صغيرة، وضع بداخلها كل أوراقه، وقفت شربات بجواره، رفضت أن تتركه، حتى تطمئن انه قد ركب القطار، وتحرك به في سلام، لينقله إلى المستقبل، كصاروخ عابر للقارات، ينقله من حياة التشرد، إلى حياة الاستقرار، ومن قصر الأشباح، إلى قصر النعيم، ومن طبقة الفقراء، إلى طبقة الأغنياء، ومعه شربات التي وقفت بجواره، حينما تخلى عنه الجميع، ما زالت تطمعه بيدها، تحنو عليه كأمه روايح، تريده زوجها، وصانع السعادة في حياتها. ارتجف قلب مسعود، حينما سمع صوت القطار، قادما من بعيد، فتشبث بيد شربات، يريد ألا يتركها، يريدها أن تأتي معه، لكنه لا يعرف، ما الذي ينتظره هناك، خشي أن يكون المجهول مرير، يكفي أن يتذوق المرارة وحده. وضعت شربات في جيبه، كل ما تبقى من الأموال، التي كان يدخرها معها، بعدما أخذت العملية الجراحية، التي أجريت إلى أمها، كل مدخراتهما، أعطته كيسا ممتلئا بالطعام، وزجاجة مياه كبيرة، وعلبة سجائر، من أجل رحلته إلى الصعيد، حتى يعود إليها بميراثه، لتبدأ حياتهما معا، بعيدا عن القصر، ودولة الخديوي عتريس.

وصل القطار على رصيف المحطة، احتشد الجميع أمام الأبواب، وعيون مسعود متشبثة بشربات، التي تتطلع إليه، بنظرة أمل في المستقبل، تطالبه بالثبات في المعركة، أن يعود إليها محملا بالغنائم، وعيون مسعود حائرة، بين زحام الأبواب وشربات، والقطار يتحرك، ويتركها على الرصيف بمفردها، يتبادلان نظرات الوداع، المشبعة بالأمل، حتى اختفى مسعود عن عيون شربات، واختفت شربات عن عيون مسعود، وسار كل منهما في طريقه، متأملا في غدا أفضل، يجمع بينهما، ينقذهما من براثن التشرد والضياع.

بمجرد أن ركب مسعود القطار، حتى حاول أن يجد لنفسه مكانا، يجلس فيه، فالقطار ممتلئ عن أخره بالركاب، لم يجد سوى مكانا شاغرا، في الرف المخصص لحقائب المسافرين، فألقى عليه حقيبته الصغيرة، وكيس الطعام وزجاجة المياه، وصعد إليه بصعوبة، جلس فاتحا كيس الطعام، ليخفف من وطأة الجوع، الذي بدأ يضرب معدته، أكل حتى شبع، وشرب حتى ارتوى، أنهى على ما معه من طعام، ولم يتبقى معه، سوا الحقيبة الجلدية، التي تحوي أوراقه، أخرج سيجارة وأشعلها، ونفث دخانها في الهواء، يفكر بعمق، حتى سمع صوت الكمسري، ينادي عليه

ـ تذاكر يا أستاذ

التفت إليه مسعود، وبمنتهى الهدوء، أشار إليه أن يقطع له تذكرة، سأله الرجل

ـ نازل فين؟

نسي مسعود العنوان، فأخرج الورقة من الحقيبة

أسيوط.. البداري.. العثمانية

قطع الكمسري التذكرة، وأخذ ثمنها، أخذها مسعود، ووضعها في حقيبته الصغيرة، وجلس يلاحظ الركاب، الذين امتلأ بهم القطار. مع مرور الوقت، بدأ القطار في التخفيف من أحماله، بنزول بعض الركاب وركوب أعدادا أقل، لاحظ مسعود، أن المكان القابع أسفل قدميه، قد أصبح شاغرا، فأسرع بالهبوط والجلوس عليه، جلس بجوار شيخ، أبيض الوجه واللحية، تظهر على جبهته علامة الصلاة، يرتدي جلبابا ابيض، وطاقية بيضاء، يمسك بمسبحة في يده، يتمتم بالأذكار طوال الوقت، نظر إليه وابتسم، فابتسم له الشيخ، شجعته تلك الابتسامة، أن يسأله عن العنوان المسطر بالورقة

ـ هي أسيوط قربت ولا لسه يا مولانا؟

ـ نازل فين في أسيوط؟

ـ مش عارف العنوان أهو..

أخذ الشيخ منه الورقة، اقترب بعيونه منها، وقرأها بهدوء:

ـ أسيوط.. البداري.. العثمانية.. سرايا عائلة الدكش

ابتسم إليه الشيخ ابتسامة، جعلت قلبه ينشرح، شعر بالأمان، وزال عنه الخوف والقلق

ـ أنا نازل في نفس العنوان.. خليك قاعد جنبي أهني لحد ما ننزل ويا بعض

تهلل وجه مسعود، لأن ذلك الشيخ الطيب، سيظل معه، حتى يصل به، إلى عنوان أهله. عاد مسعود يتأمل تلك الوجوه، التي تختلف كثيرا، عن وجوه رواد القصر، من المتشردين، هناك فرق شاسع، بين عتريس وذلك الشيخ الطيب، الجالس بجواره، وفرق كبير بين نوال، وبين تلك البنت التي تجلس أمامه، بحجابها الذي يزين وجهها الأبيض، وملامحها النقية، حتى هؤلاء الباعة الجوالين، الذين يجوبون القطار، يعرضوا بضاعتهم، والذين يتأفف منهم ركاب القطار، لأصواتهم الغليظة وأسلوبهم الفظ، لا يمثلون مثقال ذرة، في المتشردين الذين يسكنون القصر، الذين يفعلون كل شيء يخالف القانون، ولا يتورعون عن أكل الحرام، لكن هؤلاء، رغم أسلوبهم الفظ، إلا أنهم يأكلون من عرق جبينهم، يظلون طوال اليوم، يتنقلون بين القطارات، ليتكسبوا قوت يومهم.

مرت من أمامه بنتا تنادي على المناديل، فتذكر شربات حبيبة قلبه، التي تحارب من أجل، أن تبقى معه، تمنى أن يعود محملا بميراثه، لكي يحقق حلمها الصغير، أن يجتمعا تحت سقف واحد، وأربعة جدران، وبابا يغلق عليهما.

كان القطار يقطع الطريق، بسرعة هائلة، ومسعود يجلس بجوار نافذة، زجاجها مكسور، تجلب له بعض البرودة، ولكنها أتاحت

لـه، فرصـة تأمـل هـذا الجـو الريفـي الممتـع، تلـك الترعـة، التـي تمتـد بمحـاذاة شـريط السـكة الحديـد، وقطعـان الماشـية المنتشـرة، فـي تلـك المسـاحات الخضـراء الشاسـعة، هـؤلاء الفلاحـون، الذيـن يعملـون فـي الأرض، بـكل جـد واجتهـاد.

حلـم أن يكـون، ضمـن مـا سـيأخذه، مـن ميـراث أبيـه، مزرعـة مترامية الأطـراف، تربـى عليهـا مئـات الـرؤوس من الماشـية، يقضـى فيها بقية عمـره، أو يحصـل علـى حقـه مـن ميـراث أبيـه، ملاييـن الجنيهـات، فيعـود إلـى حلـوان، ويفتـح مشـروعا، يبـدأ بـه حياتـه الجديـدة مـع شـربات، ابتسـم وهـو يحـدث نفسـه، بـأن الحـظ قـد ابتسـم لـه أخيـرا، لـم يفـق مـن أحلامـه، إلا علـى صـوت الشـيخ الجالـس بجـواره

جهز نفسك نازلين المحطة الجايه..

ـ ربنا يبارك فيك يا مولانا.. بس ممكن توصلني لحد العنوان

ـ هو أنت رايح سرايا الدكش ليه؟ هو أنت تعرف حد هناك؟

كان السـؤال، بمثابـة ضربـة ناقـوس علـى رأسـه، تـردد مسـعود قليـلا، هـم أن يخبـر الشـيخ، بالقصـة بأكملهـا، لكنـه تراجـع، فهـو لا يـدري، كنـه الشـيخ الجالـس بجـواره، لكنـه اطمئـن إليـه، مـن نظـرات عينيـه الصافيـة، وابتسـامته التـي تشـرح القلـب، فسـرد لـه حكايتـه، وتلـك الأوراق التـي تمتلـئ بهـا حقيبتـه، وذلـك النعـي الـذي رآه فـي الجريـدة، والميـراث الـذي جـاء ليفتـش عنـه، لكنـه لاحـظ أن الابتسـامة، التـي كانـت تعلـو وجـه الشـيخ، قـد تبدلـت، فشـعر بالريبـة تجتـاح قلبـه،

وتوترت أعصابه، لم يدرك سبب تغير وجه الشيخ، فعادت إليه مخاوفه، التي جاء بها.

ـ في إيه يا مولانا.. أنا ملاحظ إنك أتغيرت بعد ما حكيت لك حكايتي؟!

ـ لع يا مسعود يا ولدي مفيش حاجة.. أنا راح أوصلك لحد أهلك.. ولو احتاجت حاجة.. هتلاقيني في الجامع الكبير.. هو قريب من سرايا عيلتك.. اسأل عن الشيخ حسين

انطلقت صافرة القطار، فأشار إليه الشيخ حسين، بأن ينهض من مكانه، لقد وصل القطار، إلى رصيف المحطة، فنزل بصحبة الشيخ حسين إلى القرية، شعر بانشراح صدره من منظر الريف والخضرة، والهواء النقي، الذي يجتاح أنفاسه، حتى وصلا إلى مشارف المسجد، فأشار إليه الشيخ

ـ هو ديه الجامع.. اللي راح تلاقيني فيه طول الوقت..

ثم أشار إلى السرايا، التي تبعد حوالي مائة متر عن المسجد

ـ والسرايا الكبيرة ديه هي سرايا عيلتك.. روح واسأل عن الحاج عثمان.. ربنا معاك يا ولدي.

شعر مسعود بالخوف يجتاح جسده، كان يتمنى، أن يصطحبه الشيخ حسين، إلى بيت أهله، فيكون لسانه الذي ينطق به، وسنده بعد الله، لكنه خجل أن يطلب ذلك. فالشيخ حسين كما يبدو، رجل

كبير المقام، وله مكانه كبيرة، بين أهل البلدة، فمنذ أن نزل من القطار، وكل من قابله، من أهل البلدة يستقبله، بالإجلال والتقدير. رغم الخوف الذي تملك مسعود، لكنه لم يشأ، أن يبدو بكل هذا الضعف، فهو ليس لص أو متسول، أن له حق سيأخذه، ولو كان عند أسد الغابة، شكر الشيخ حسين، ووعده أن يمر عليه، بعد أن ينهي مهمته، فدعا له الشيخ حسين، تحرك مسعود نحو السرايا، حتى اقترب من أسوارها العالية، ودلف الشيخ حسين المسجد، بعدما اختفى مسعود عن عيونه.

• • •

١٣١

اقتـرب مسـعود مـن السـرايا، التـي تبـدو كقلعـة حصينـة متعـددة الطوابـق، ذات طـراز معمـاري عتيـق، حوائطهـا مـن الطـوب الحجـري، ومحاطـة بسـور عـال، نصفـه الأسـفل مـن الحجـارة، ونصفـه الأعلـى عبـارة عـن قضبـان حديديـة عتيقـة، تطـل منهـا الأشـجار العاليـة، ذات الأغصـان الوارفـة، لهـا بوابـة كبيـرة، يقـف أمامهـا مجموعـة مـن الخفـر، اقتـرب منـه أحدهـم

ـ رايـح فيـن يـا جـدع أنـت.. وعايـز إيـه؟ أنـت فاكرهـا سـبيل.. ديـه دوار الحـاج عثمـان بيـه الدوكـش..

ـ أنا بقا جاي أقابل الحاج عثمان..

ـ نقوله مين؟

ـ قوله أخوك مسعود

تهكـم الخفـر، وهـم يسـمعون مقولـة أخـوك مسـعود.. ووجـه أحدهـم بندقيتـه نحـو مسـعود

ـ أنـت بايـن عليـك مجنـون يـا جـدع أنـت.. هتغـور مـن أهنـي ولا أطخـك بالبندقيـة وأريـح أمـك منـك

لـم يخـف مسـعود، بـل لبـس ثـوب الشـجاعة، جـذب البندقيـة مـن يـد الخفيـر، وأطـاح بهـا بعيـدا، ودفـع الخفيـر الأخـر بعيـدا، فالتصـق

بالسور، وهرول نحو الباب، وفتحه بقوة، محاولا الدخول، فلحق به أحدهم من جديد، جذبه من ملابسه، وأطاح به بعيدا، تجمع باقي الخفر، والتفوا حوله، في محاولة لتقييده، فارتفعت أصواتهم، حتى أسمعت الحاج عثمان، بغرفته بداخل السرايا، فخرج إلى الشرفة، وضرب بمسدسه في الهواء، عدة طلقات نارية، أرعبت مسعود، فابتلع ريقه، وقف يتأمل ملامح الحاج عثمان، قريبة الشبه جدا، من ملامح أبيه، المنشورة في الجريدة، نفس الوجه والهيئة، ولولا أنه رأى النعي بنفسه، لظن أن أباه ما زال على قيد الحياة.

ـ في إيه يا غفير أنت وهو.. ومين الجدع ديه..

ما أن سمع الخفر، صوت الحاج عثمان، حتى وقفوا كالأصنام، ورد أحدهم في خوف وارتباك

ـ تمام يا عثمان بيه.. الجدع ديه بيقول إنه أخو سعادتك

نظر عثمان إلى مسعود في ريبة، تأمل ملامحه، تبادل الاثنان نظرات خاطفة، لكن نظرات عثمان كانت حادة وقوية، وود لو أطلق على مسعود رصاصة، فتودي بحياته في الحال، لكنه عاد أدراجه، وأشار إليهم، بأن يدخلوه إلى داخل السرايا.

ـ هاتوه نشوفوه حكايته.. الظاهر المجانين كتروا اليومين دول..

بلع مسعود ريقه، ودخل السرايا، تأمل فخامتها المبهرة، الأعمدة

المزينة بالنقوش، والقاعة الكبيرة، ذات المفروشات الفخمة، الأبهة والعظمة، التي يعيش فيها إخوته، لمح على الحائط صورة كبيرة لوالده، في أواخر حياته، أظهرت علامات الشيب، على لحيته وشاربه، رغم القوة والصلابة، التي تبدو من ملامحه، القريبة الشبه من الحاج عثمان.

جلس مسعود على أقرب كرسي، وحوله الخفر، في انتظار نزول الحاج عثمان، لكي يعطيهم التعليمات، بأن يعودوا إلى البوابة، أو أن يبقوا بجواره، للتصرف مع هذا الغريب. مرت دقائق من الانتظار، حتى ظهر الحاج عثمان، بطوله المتوسط وجسده الممتلئ، يرتدي جلباب من الصوف، وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة، وبيده اليمنى مسبحة قصيرة، وبيده اليسرى عصى من الأبنوس، جلس على الكرسي الكبير، أمام مسعود، وضع رجله اليمنى فوق اليسرى، أشار إلى رجاله، بالانصراف إلى البوابة، نادى بصوت الأجش:

ـ مسعود.. أنت يا ويد يا مسعود..

شعر مسعود بالرعب، ابتلع ريقه بصعوبة، وأحتضن حقيبته بقوة، وأنكمش في الكرسي الجالس عليه، نظر إلى عثمان وقلبه يرتجف، فعثمان له تلك الهيبة، التي تؤهله ليكون زعيم قبيلة، يبدو ذلك من ملامحه الحادة، وخوف الخفر الشديد منه، سأله مسعود في دهشة

ـ هو أنت تعرف اسمي؟

ضحك عثمان، وبرزت أسنانه القوية، وتلك السنة الأمامية المذهبة، هرش في ذقنه الكثيفة

ـ مالك اتزغفت أكديه..؟.. ده الخدام اللي شغال عندينا في السرايا

اقترب مسعود الخادم، وقف في أدب واحترام، فاردا طوله، وكأنه يؤدي التحية العسكرية

ـ تحت أمرك يا حضرة العمدة

ـ شوف ضيفنا يشرب إيه.. ولا نحضرو وكل.. باين عليك تراب السفر.. وشكلك جعان

فهم مسعود المغزى من كلامه، مسعود ليس بجوعان، ولا ينتظر لقمة، تلقى إليه من عثمان، لقد جاء ليطالب بحقه الشرعي، في ميراث أبيه، يأخذه ويرحل في سلام

ـ.. أنا مش جاي عشان أكل ولا أشرب.. أنا ليا حق.. جاي أخده وأمشي علطول

نظر إليه عثمان بغيظ، يتخفى تحت ستار من التهكم، لم يبدي دهشة، لكنه نظر إليه متسائلا

ـ واه.. أنت ليك حق عندينا؟!.. أنت مين يا ويد أنت، وكيف تتكلم معانا باللهجة دي.

لاحظ عثمان أن مسعود الخادم، ما زال واقفا بجواره، فأشار إليه بالانصراف، وحينما تأكد أنه قد انصرف، وأصبحت كلماته في

مأمن، من أن تُسمع، تحرك من فوق كرسيه، اقترب من مسعود وأشار إليه، وقال بنبرة تهديد

ـ أنا عارف أنت مين يا ويد أنت.. وجاي ليه.. أنت مسعود ولد بياعة الجرايد.. اللي ضحكت على الكبير.. وبلفته بكلامها الناعم كيه كلام الغوازي.. لحد ما غلط معاها.. وأدي النتيجة.. جابلنا طور جاي ينطح.. ويقول حقي وأبصر إيه.. أنت ماليكش حق عندينا واصل.. يا ويد النحس أنت..أخرج على رجليك.. أحسن ما تخرج على نقالة.. سامعني صح ولا أقول تاني.

شعر مسعود بأن روحه تصعد، وكلمات عثمان تخترق أذنه، فتنفذ إلى قلبه، وتجرحه بقسوة، فتدمي ما تبقى فيه من دماء، لقد فرح بهروبه من الخديوي عتريس، فوجد هنا الخديوي عثمان، كل اللصوص تكاثروا عليه، تبا لك يا شربات، وتبا لما أشرت به، ليته ما ترك حلوان، وأتى إلى الصعيد.

لم يستطع مسعود، أن ينطق ببنت شفه، لم يشعر إلا وعثمان يتركه، ويهرول إلى باب المندرة، صرخ في الخفر، الذين يقفون أمام بوابة السرايا.

ـ طلعوا الكلب ده من أهني.. ما بقاش إلا ولاد الغوازي كمون يجوا يهددونا في بيوتنا..احمد ربنا أن حسام بيه لساته نايم... كان سحلك على المركز..وعرفك مين ولاد الدكش ُصح

هرع الخفر نحو الداخل، والتفوا حول مسعود، وأخرجوه من

السـرايا بالقـوة، خـرج مسـعود والدمـوع تفـر مـن عينيـه، شـعر بالانكسـار والهزيمـة، لـم يجـد مـا يفعلـه، سـوى أن يجلـس، بجـوار سـور السـرايا العتيـق، يفكـر فيمـا سـيفعله، فـي تلـك الورطـة، الجديـدة فـي حياتـه، هـل سـيترك حقـه، لكـي يسـتولي عليـه اللصـوص، الخديـوي عتريـس فـي الشـمال، والعمـدة عثمـان فـي الجنـوب، اسـودت الدنيـا فـي عينيـه، وأُغلـق بـاب الأمـل فـي وجهـه، بعدمـا فُتـح علـى مصراعيـه، وأطلـت منـه أحلامـا عريضـة، ثـم تحـول الحلـم إلـى كابـوس، وعـاد شـبح الفشـل يطـارده مـن جديـد، خـرج مسـعود مـن السـرايا، يحمـل خيبـة جديـدة فـي حياتـه، وفشـلاً قتـل كل أمـلا بداخلـه، مـاذا سـيقول لشـربات؟ هـل سـيقول لهـا، أنـه قـد فشـل فـي الحصـول علـى حقـه، إنـه لا يسـتحق الحيـاة، إنـه أضعـف مـن أن يعيـش فيهـا.

أفـاق مسـعود علـى صـوت آذان العصـر، ينبعـث مـن المسـجد الكبيـر، فتذكـر الشـيخ حسـين، فقـام مـن جـوار السـور وأسـرع الخطـى، حتـى وصـل إلـى المسـجد، اقتـرب مـن بابـه الكبيـر، المفتـوح علـى مصراعيـه، وكأنـه يدعـوه للدخـول، تطلـع نحـو الداخـل، يفتـش بعيونـه عـن الشـيخ حسـين، لـم يفكـر أن يخطـو خطـوة واحـدة، إلـى داخـل المسـجد، لأنـه وبمنتهـى البسـاطة، وعلـى مـدار تاريـخ حياتـه، لـم يدخـل المسـجد مطلقـا.

سـأل نفسـه لمـاذا لـم يصلـى؟ أو فكـر يومـا أن يدخـل المسـجد؟،

ليبتهل إلى الله، أن يفرج كربه، فكر جديا أن يدخل المسجد، لكنه شيطانه منعه من الدخول، فاكتفى بالوقوف أمامه، في انتظار الشيخ حسين، حتى لمحه قادما من بعيد، بوجهه المشرق وجلبابه الأبيض، تقدم نحوه وابتسم، بدأ في سرد ما حدث له، في بيت عائلة الدكش، فأشار إليه الشيخ أن يصمت

ـ تعالى نصلى فرض ربنا الأول.. وبعدين نقعد نحكي.

صمت مسعود كثيرا، نظر إلى الشيخ حسين، أراد أن يخبره، إنه لا يصلي، ولكنه شعر بالخجل، فأدرك الشيخ ما ينتوي عليه قلب مسعود، فجذبه من ذراعه برفق، وأدخله إلى المسجد

ـ يلا نصلي يا شيخ مسعود.. وبعدها أخدك البيت.. نأكل لقمة وتستريح.. وتحكي زى ما أنت عايز.. وما تخافش لو الليل ليل.. هتبات عندينا.. وروح الصبح من بدري

شعر مسعود بالراحة والسكينة تجتاح قلبه، فأطاع الشيخ بلا تردد، دلف إلى المسجد خلفه، فشعر بالراحة النفسية. حينما بدأ في الوضوء، شعر أن الذنوب، تتساقط من يديه ووجهه وقدمه، أن المياه لا تغسل جسده من الأوساخ المادية، بل تطهره معنويا، لتدخله طاهرا إلى حضرة الله، ليقف بين يديه خاشعا، ليشكو إليه وحده، ما أصابه من ظلم البشر.

أقيمت الصلاة، واصطف المصلون خلف الشيخ حسين، رفع مسعود يديه لأعلى وكبر، ودخل بروحه وقلبه، إلى ذلك العالم

الروحانـي، فشـعر بسـعادة بالغـة، لـم يتمالـك دموعـه، وهـو سـاجدا يسـتغفر الله، مـن كل خطيئـة ارتكبهـا، يبتهـل إلـى الله، أن يفـرج كربـه، أن يجمعـه بشـربات، وأن يبعـده عـن طريـق الحـرام.

انتهـت شـعائر الصـلاة، وجلـس الشـيخ حسـين، يتمتـم بـأذكار المسـاء حتـى انتهـى، وأطبـق يـده علـى مسـبحته ووضعهـا فـي جيبـه، دنـى من مسـعود، وجلـس بجـواره، فـرأى علامـات الخشـوع، وأثـر الدمـوع فـي عينيـه.

ـ أنـا شـايف مسـعود تانـي.. غيـر مسـعود اللـي كان مـن دقايـق قـدام الجامـع

ـ أيـوه يـا شـيخ حسـين.. أنـا أول مـرة فـي حياتـي أصلـي.. ودي بدايـة توبـة نصوحـة.

ـ الحمـد لله رب العالميـن، عـن سـهل ابـن سـعد رضـي الله عنـه، أن النبـي صلـى الله عليـه وسـلم قـال (فـو الله لأن يهـدي الله بـك رجـلا وأحـدا خيـر لـك مـن حمـر النعـم) صـدق رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم.. قـوم بقـه نـروح البيـت.. تسـتريح وتـأكل لقمة..وتحكـي عملـت إيـه مـع أولاد الدكـش.

• • •

٣٢

دخل مسعود بيت الشيخ حسين، بيت صغير من الطوب اللبن، يتكون من طابقين، قليل الغرف، متواضع الأثاث، شعر مسعود بالراحة النفسية، من صوت القرآن، المنبعث من أرجاءه طوال الوقت، والهدوء والسكينة، التي تطل من ردهاته، دخل الشيخ حسين، وألقى تحية السلام، ونادى على زوجته

ـ يا أم عبد الرحمن..

اقتربت منهما سيدة، في الخمسين من عمرها، بجلبابها الأسود الطويل، والطرحة التي تغطى رأسها ومعظم جسدها، نظرت إلى مسعود، ثم طأطأت رأسها، نظر إليها الشيخ، وقال في هدوء، طالبا وليس آمرا.

ـ عندينا ضيف جاي من مصر.. اعمليلنا الشاي.. عقبال ما تجهزي الوكل..إحنا هنقعد في المندرة القبلية عشان الجو برد... بسرعة يا أم عبد الرحمن...

هرعت أم عبد الرحمن نحو الداخل، وهي ترد بصوتها المنخفض، الذي لا يكاد يسمع

ـ حاضر يا حاج... أتفضلوا..أهلا وسهلا بالضيف.. أنستنا ونورتنا

دخلا الغرفة القبلية، جلس الشيخ حسين، على أريكة خشبية،

عليها فراش من الوبر الثقيل، وجلس مسعود بجواره. بعد قليل، دخل عليهما شاب طويل، بلحية خفيفة، يرتدي جلباب أبيض، وطاقية بيضاء، يحمل صينية الشاي، وضعها أمام مسعود، ثم سلم عليه، وجلس بجواره، فأشار الشيخ إلى مسعود

ـ عبد الرحمن ولدي.. بيدرس في كلية شريعة وقانون في جامعة الأزهر.

ثم أشار إلى عبد الرحمن وأردف

ـ أخوك مسعود.. جاي من مصر.. ليه مصلحة أهني هيقضيها ويسافر طوالي..

رمقه مسعود بابتسامة، فانشرح صدره برؤيته، وتبادلا عبارات الترحيب، سأله الشيخ حسين عن ما حدث معه، في سرايا عائلة الدكش، فحكي له كل ما حدث بالتفصيل، فطلب منه عبد الرحمن روية أوراقه، دقق فيها، وقارن فيما بينها، وقلب مسعود يرتعش من الخوف

ـ الموضوع سهل جدا يا مسعود.. مكنش مفروض تيجي ولا تتعب نفسك.. بتوكيل صغير لواحد محامي.. وبالأوراق اللي معاك ديه.. هتاخد حقك وأنت حاطط رجل على رجل كمان

فرح مسعود، وهم أن يقوم، فيحتضن عبد الرحمن، بل يقبل رأسه

ـ ربنا يطمن قلبك يا شيخ عبد الرحمن..

لكن الشيخ حسين أبدى رغبته، في حل الموضوع بالتراضي، بدلا من اللجوء إلى المحاكم، التي ستطول حبالها، كما أن المحامي، قد يستغله ويقاسمه ميراثه، ويخرج مسعود من المولد بلا حمص

ـ أنا شايف يا عبد الرحمن يا ولدي.. إني أروح مع مسعود.. لبيت الدكش، نحاول نحل الموضوع بالتراضي.. ولو ما رضيوش.. يبقه مفيش حل تاني غير المحاكم..

قال مسعود في خوف، مع رضا برأي الشيخ عبد الرحمن

ـ مش عايز أسببلك مشاكل يا عم الشيخ..

ـ ما تخافش يا مسعود يا ولدي..اللي له حق.. ربنا بيكون سنده وظهره..

سُمع طرق خفيف على الباب، وصوت أم عبد الرحمن، تخبرهم بان الغذاء جاهز، فخرج إليها عبد الرحمن، حمل عن أمه الصينية، وعاد بها ووضعها أمام مسعود، الذي رمقها، فانشرح صدره، بعدما رأى عليها، من ألوان الطعام، ما فتح شهيه للأكل. جلس الثلاثة يأكلون، ومسعود يحكي لهما، عن حياته منذ أن ولد، حتى جلس بين أيديهما، يأكل طعام الغداء، والشيخ حسين، وعبد الرحمن، يصغون إليه في اهتمام وتركيز..

• • •

١٣٣

اجتمع الإخوة الثلاثة، الحاج عثمان والضابط حسام والحاج علي، في المندرة الكبيرة، بداخل السرايا، يتبادلون الآراء، حول ذلك الغريب، الذي هبط عليهم من القاهرة، ليطالب بحقه في ميراث الحاج منصور الدكش، وبدا على كلام عثمان، الحدة الممزوجة بالقلق، فبادره حسام

ـ هو الويد مش غار وخلصنا منيه عاد.. قلقان ليه يا حاج عثمان

ـ الويد ما غارش يا حسام بيه.. الويد راح عند الشيخ حسين.. وأكيد حكاله كل اللي حُصل.

فقال الحاج علي، بمنتهى الانزعاج والتوتر، وهو يبلع ريقه بصعوبة

ـ وعرفت كيف يا كبير؟

ـ بعت وراه الغفير معوض.. وعرف الويد راح فين.. وقابل مين..

فقال حسام بحدة، والشرر يتطاير من عينيه، معاتبا أخيه عثمان

ـ عشان ما عرفتش تتصرف صُح.. أخدتك العنجهية.. دلوخت الويد هيحكيله.. عن أمه بياعة الجرايد.. واللي اتجوزها أبونا الحاج منصور.. وجاب منه البغل ديه

وضع الحاج علي يده على رأسه، مستنكرا تلك الفضيحة المدوية،

التـي ستنال مـن سـمعة أبيهـم الحـاج منصـور فـي القرية.

ـ يـا وقعـة مرهربـه.. بكـرة البلـد كلاتهـا هتعـرف..أن الحـاج منصـور الدكـش كبيـر البلـد.. كان متجـوز مـن بياعـة جرايـد.. ومخلـف منهـا ويـد.. كيـه البغـل..

ابتسـم عثمـان سـاخرا، أشـاح بيديـه نحـو إخوتـه، وأمسـك عصـاه الأبنـوس بقـوة، وأسـند عليهـا ذقنـه

ـ هـو فـي حـد فـي البلـد.. يقـدر يفتـح خاشـمه واصـل.. وعـزة جـلال الله.. أقتلـه ولـو كان ميـن

فقال الحاج علي في نبرة وعظ، مسفها من عنجهية أخيه عثمان

ـ أنـت ناسـي أن الشـيخ حسـين.. لـه كلمـة مسـموعة بيـن أهـل البلـد.. وحيقولهـم إن الحـاج عثمـان وأخواتـه أكلـوا حـق أخوهـم.. قولتكـم ننفـذ وصيـة الحـاج.. ونـدور علـى الويـد ديه..ونديلـه حقـه ويغـور من وشـنا

قال حسام في محاولة لإيقاظ عثمان من أوهامه

ـ أنـا عرفـت مـكان الويـد يـا عثمـان.. وأنـت رفضـت إننـا نخلصُـو معاه الموضـوع..قبـل مـا ينطلنـا أهنـي ويعملنـا فضيحـة.. أنـت ناسـي إن الانتخابـات علـى الأبـواب.. واللـي حُصـل ديـة هينقـص مـن شـعبيتك ضحـك عثمـان بسـخرية، مسـفها مـن كلام إخوتـه، وأشـار إليهـم بغضـب

ـ النـاس دي كلهـا تحـت جزمتـي.. الأصـوات بأخذهـا بفلوسـي.. والوشـوش بكسـرها بلقمتي..والـكل عـارف أكديه..ومتوكديـن منـه صُـح

قال حسام في نبرة خوف وقلق

ـ أكيد دلوخت الشيخ حسين.. هيجيب الويد وياجي.. حتعملوا إيه علشان نتفقُ؟

نظر إليه عثمان في استغراب ودهشة

ـ هو إيه اللي نعمله عاد يا حسام بيه.. أنت ناسي إننا ظبطنا ورقنا قبل موت الحاج

فجأة نزلت إلى القاعة، الحاجة فاطمة زوجة الحاج عثمان، تلك السيدة، التي تبدو على قدر كبير من الوقار، بوجهها الأبيض المستدير، وملامحها القوية، فالجميع يحترمها ويوقرها، لأصلها الشريف، الذي ينتهي إلى الحسين ابن علي ابن أبي طالب، دارت حولهم، بعيونها السوداء الواسعة، ثم جلست بجوار زوجها، ما أن شرعت في التحدث، حتى قاطعها الحاج عثمان، مستنكرا.

ـ أطلعي فوق دلوخت يا حاجة.. دي قاعدة رجالة ملكيش فيها واصل

ـ أنا جايا أقول كلمة حق.. أقابل بيها وجه ربنا.. وأفكركم أن الحاج منصور الله يرحمه.. وصاكم قبل ما يموت.. بأنكم تدورا على أخوكم.. وتدولوا نصيبه في ورثه.. وأدي أخوكم جالكم يأخذ حقه.. وأصبحت الوصية واجبة التنفيذ.. اللهم إني بلغت اللهم فأشهد..

ثم قامت برشاقة لا تتناسب مع سنها، شيعتهم بنظراتها اللوامة،

وألقت عليهم تحية السلام، وصعدت درجات السلم إلى غرفتها، والصمت يلف القاعة، وكأن على رؤوسهم الطير، لم يقطعه سوى، صوت الخفير معوض، الذي دخل في هدوء وقال

ـ الشيخ حسين عايز يقابل حضرتك يا عثمان بيه

ـ جاي لوحده ولا معاه حد يا معوض

ـ معاه ابنه الشيخ عبد الرحمن.. والويد اللي كان هنا العصر

ـ خليهم يخشوا.. ومش عايز حد.. يخش علينا واصل، لحد ما يغوروا من أهني

هرول الخفير معوض نحو الخارج، ودخل الشيخ حسين، وخلفه ابنه عبد الرحمن ومسعود، قام الحاج عثمان مرحبا بالشيخ حسين، قبل رأسه وأجلسه بجواره، وأقبل عليه حسام وأخيه الحاج علي، وسلما عليه، وجلس عبد الرحمن وبجواره مسعود، فبادر عثمان

ـ إيه الزيارة الكريمة دية يا شيخ حسين.. إحنا أتباركنا بيك الليلة

نظر إليه الشيخ حسين، وعلى وجهه ابتسامة، وأشار إلى مسعود

ـ أعرفكم على مسعود.. ضيف جاي من مصر.. أظن إنكم أول مره تشوفوه..

نظر إليه عثمان في غضب، رغم محاولته رسم ابتسامة ترحيب

ـ أهلا بالشيخ حسين وبضيوفه

نظر إليهم حسام بمكر، ووجه حديثه إلى الشيخ حسين

ـ خير يا شيخ حسين.. أي خدمة نقدر نقدمها ليك.. ولضيفك.

ـ الراجل ديه جيه واستنجد بيا يا حسام بيه.. بيقول أن له حق عنديكم..ولما سألته قال إنه مش هيتكلم إلا أهني.. وطلب مني أجي معاه.. ولو حابين إني أخرج وأتركه معاكم.. معنديش مانع واصل.. لكن بشرط... إنه ياخد حقه اللي أني معرفوش.. رد حقوق الناس فرض.. هيحاسبنا عليه ربنا سبحانه وتعالى.

نظر إليه الحاج علي، وابتسم وقام من مكانه، وقبل رأس الشيخ حسين

ـ أنت قدومك.. على رأسنا من فوق.. يا شيخ حسين.. ولو ليه حق يبقه لازم ياخده.. وبيتنا هو بيتك وسرنا هو سرك.. وأنت شيخنا الأمين.. وولدك عبد الرحمن أخونا الصغير

ـ عفارم عليك يا حاج علي.. أنت نعم الرجال.. وما تتخيرش عن أخوك عثمان ولا حسام بيه.. لكن أنا أحب أسمع الرد من الكبير..

الحاج عثمان

نظر إليه عثمان في خيلاء، ورمق مسعود في غضب

ـ اسمع يا شيخ حسين.. أنت تعرف الحاج منصور الدكش صُح.. هل سمعت إنه له ولاد غيرنا إحنا التلاتة.. وأخواتنا البنات اللي أنت تعرفهم زين؟

ـ لع يا حاج عثمان.. والدكم المغفور له الحاج منصور.. كان راجل بمعنى الكلمة.. اسمه وأخلاقه كيه الجنيه الذهب.. ديه

كبيرنا وكبير بلدنا.. وجمايله على البلد.. فوق رؤسنا ما تتنسيش واصل.. وما ينكرها إلا جاحد وابن حرام..

- زين حديتك ديه.. لما ياجي ويد.. لا نعرفه ولا يعرفنا.. ويجيب شوية ورق..منعرفوش مزورهم ولا أبصر إيه ويقول إنه أخونا.. وإن له حق في ميراث الحاج منصور.. نصدقه

- والله يا حاج عثمان الشرع بيقول.. البينة على من ادعى.. والحلف على من أنكر.. الفيصل هو صحة الأوراق والمستندات اللي معاه..

ثم نظر إلى مسعود، الجالس في صمت، تنفيذا لتعليماته، التي أوصاه بها، وأردف

- أنت معاك ورق يثبت كلامك ديه يا مسعود

انتفض مسعود، وأخرج الأوراق التي بحوزته، وهم أن يعطيها إلى الشيخ حسين، لكنه أشار إليه، أن يعطيها إلى ابنه عبد الرحمن ليفحصها، وقال إليه بحزم

- شوف يا عبد الرحمن يا ولدي.. المستندات ديه فيها إيه

بلع عثمان ريقه، والحاج علي يتصبب عرقا، وأخيهما حسام، يترقب الموقف، وعبد الرحمن يأخذ الأوراق، ويفحصها بعناية، ثم خرج عن صمته، وقال في حزم

- الورق عبارة عن قسيمة زواج.. بين الحاج منصور إسماعيل الدكش.. وست اسمها روايح محمود عبد الكريم.. وكمان في

شـهادة ميـلاد.. باسـم مسـعود منصـور.. وفيهـا اسـم الأم روايـح محمود عبـد الكريـم.. وكمـان بطاقـة الرقـم القومـي.. باسـم مسـعود منصـور إسـماعيل الدكـش

ـ يعني الورق مظبوط يا عبد الرحمن يا ولدي

ـ الورق مظبوط يا حاج.. وبيأكد كلام مسعود..

نظـر الشـيخ حسـين إلـى الإخـوة الثلاثـة، منتظـرا الـرد، فأخـذوا يتلفتـون نحـو بعضهـم البعـض، ثـم تركـوا عثمـان يـرد، علـى الشـيخ حسـين ومسـعود

ـ على فرض صحة الورق ديه.. إيه المطلوب يا شيخ حسين؟

ـ مسـعود ياخـد حقـه ويرحـل.. وأوعدكـم وعـد شـرف.. أن كل اللـي حُصـل ديـة.. جـوه النـدرة ديـه.. محـدش حيعـرف منيـه حـرف واحـد.. لحـد مـا أقابـل وجـه رب كريـم.

خرج حسام عن صمته، ونظر بسخرية إلى الشيخ حسين وقال

ـ إحنـا أول مـره.. نعـرف الحـوار ديـه يا شـيخ حسـين.. ومنقـدرش ندي لمسـعود قـرش واحـد.. وديـه لسـبب بسـيط جـدا..إن الحـاج منصور الله يرحمـه.. قبـل مـا يمـوت.. كتـب كل أملاكـه.. لـكل أولاده بيـع وشـراء ومعانـا كل العقـود.. اللـي تثبـت الـكلام ديـة.. طلـع الأوراق يـا عثمـان أخـرج عثمـان مـن حقيبـة جلديـة صغيـرة بجـواره، المسـتندات وأعطاهـا لعبـد الرحمـن

ـ شوف أكديه.. وقلنا إيه رأيك يا شيخ عبد الرحمن..

أخذ عبد الرحمن الأوراق، تفحصها جيدا، وقلب مسعود يرتجف من الخوف، لقد ضاع أمله في الحصول على حقه، لقد استطاع إخوته تجهيز مستنداتهم، وأخرجوه من المولد بلا حمص تبا لك يا عثمان، سأعود إليك يا شربات صفر اليدين، سأعود من جديد تحت رحمة الخديوي عتريس لم يفق إلا على صوت عبد الرحمن يقول

ـ المستندات بتقول أن الحاج منصور.. كتب كل ممتلكاته لأولاده بيع وشراء.. حتى السرايا أصبحت ملك الحاج عثمان.. وكمان في خطابات من البنوك.. بتقول أن الحاج منصور.. سحب كل أرصدته من البنوك قبل موته بأيام.

نظر الإخوة الثلاثة، إلى الشيخ حسين ومسعود نظرة المنتصر، ومسعود جالس كالمنوم، أفقدته الصدمة القدرة على الكلام، والشيخ حسين يتفرس في وجوههم، لقد فهم أبعاد الخطة المحكمة، التي دبروها ليحرموا أخوهم، من حقه الشرعي في ميراث أبيه، فحاول أن يستدر عطفهم على أخيهم، لكي يحصل على أي مبلغ، يساعده في ظروفه الصعبة.

ـ بس ديه أخوكم.. وليه حق عليكم.. حق الأخوة... ولو أنحرم من ميراث الحاج منصور.. فله حق على أخواته الكبار... اللي ما يرضيهومش أن أخوهم يعيش في فقر وحرمان.

شعر مسعود بالمهانة، لقد تحول من مطالب بحقه، في ميراث أبيه، إلى متسول، يستجدي لقمة يسد بها رمقه، فجمع أوراقه في حقيبته، وهم بالانصراف، وقال إلى الشيخ حسين

ـ كفاية كده يا شيخ حسين.. أرجوك بلاش أسلوب الاستعطاف ده.. أنا مش هشحت حقي ولا عايزه.. أنا راضي بحياتي كده.. بس أنا جيت..عشان أشوف أخواتي..وأعرف أن ليا عيلة وأخوات.. يرفعوا الرأس..عشان لما أتجوز..وابني يكبر..أقوله أن له في الصعيد..أهل وعيله..مش مقطوع من شجرة.

قام الشيخ حسين، وأشار إلى عبد الرحمن بالقيام، نظر الأخوة إلى بعضهم البعض، ثم أشاروا إلى الحاج عثمان، بأن يضع كلمة النهاية، فأشار إليهم، بالتوقف عن الانصراف، محاولا كسب ود الشيخ

ـ اسمع يا شيخ حسين.. مجيتك ديه على رأسنا من فوق.. وما يرضيناش انك تطلع زعلان منينا أكديه.. وكمان الأخ مسعود.. رغم إننا مش متوكدين من حديده..ولا ورقه.. مش راح نخرجه من بيت الحاج منصور.. مكسور الخاطر أكديه

ثم أخرج من جيبه، دفتر شيكات وقلم، ودون فيه مبلغ من المال

ـ أدي شيك بميت ألف جنيه مننا لمسعود.. مبلغ يبدأ بيه حياته.. أظن أكديه عدانا العيب

طلب الشيخ حسين من مسعود، بأن يقبل الشيك ويرضى بنصيبه،

تـردد مسـعود قليـلا، ثـم تذكـر شـربات، والوعـود الورديـة، التـي رسـمها لهـا، لكـن كبريائـه منعـه، أن يمـد يـده، ويأخـذ الشـيك، نظـر إلـى أخيـه عثمـان وابتسـم، ثـم وأعطـاه ظهـره، وأنصـرف إلـى خـارج السـرايا، وتبعـه الشـيخ حسـين، وخلفـه عبـد الرحمـن، الـذي قطـع نظرتـه، إلـى أعلـى الشـرفة، التـي تقـف فيهـا حسـناء، ابنـة الحـاج عثمـان، وانصـرف فـي عقبهـم.

٣٤

هرول مسعود من بيت الحاج عثمان، صم أذنه عن أي كلام، فلم يسمع نداءات الشيخ حسين

ـ انتظر يا مسعود يا ولدي.. أنت رايح فين دلوخت.. البيت من أهني

هرول مسعود نحو طريق محطة القطار، فلحق به عبد الرحمن، وجذبه من ملابسه

ـ.. الشيخ عمال ينادم عليك.. وأنت مش معبره واصل.. يلد عليك كيه

توقف مسعود، والتفت إلى ناحية الشيخ حسين، وهرول إليه قبل رأسه ويده

ـ سامحني يا شيخ حسين.. والله ما سمعت صوتك..

ـ تعال نروح البيت.. َبيت الليلة عندينا وروح الصبح

ـ معلش يا شيخ حسين.. أنا حبات على المحطة.. اركب أي قطر ياخدني على مصر

ـ مش راح تلاقي قطارات دلوخت..اسمع الكلام وميبقاش دماغك ناشف..الصباح رباح

تردد مسعود قليلا، فاحتضنه عبد الرحمن، وسحبه من يديه نحو

البيت، وطمئنه إنه سيسافر إلى القاهرة في الصباح، وسيصطحبه معه في رحلته. عاد مسعود إلى بيت الشيخ حسين، شعر بالراحة النفسية، تعود إليه من جديد، مع صوت القرآن، المنبعث من أرجاء البيت، وتلك الوجوه النقية، التي تشع نورا وسكينة، وكرم الضيافة منقطع النظير. جلس الجميع في غرفة الضيوف، بينما دخل عبد الرحمن، بصينية كبيرة عليها طعام العشاء، وضعها أمام مسعود، فتحركت أمعاءه من الجوع، أشار إليه الشيخ حسين

ـ بسم الله يا مسعود يا ولدي، حاجة على مقوسهم.

ـ ما تقولش كده يا شيخ حسين كفاية وقفتك جنبي...

انتهى الجميع من طعام العشاء، وحمل عبد الرحمن الصينية، بما تبقى عليها من طعام، إلى خارج الغرفة، ثم عاد بصينية الشاي، وأخذ كل منهم كوبه، يرتشف منه، بادره الشيخ حسين

ـ قولي يا مسعود يا ولدي.. ناوي على إيه بعد ما ترجع مصر

صمت مسعود كقبر، لقد وصل إلى الشيخ حسين، ما يدور بعقل مسعود، ماذا سيفعل بعد عودته، حتما سيعود إلى مملكة الخديوي عتريس من جديد، ليجمع له الإتاوة من المتشردين، الذين يسكنون القصر، سيعود إلى شربات، الواهمة بمستقبل واعد، والتي لا تزال تراه فارس أحلامها تبا لك يا أبي لكن الشيخ حسين أردف متسائلا

ـ هترجع للقصر المهجور.. وتعيش وسط المجرمين واللصوص..

وترجع لطريق الضلال بعد ما ربنا كرمك.. وفتحلك طريق الهداية.. لع يا ولدي..

سرح مسعود قليلا، تعلقت عيناه بصورة الكعبة، المعلقة على جدار الغرفة، فاضت عيناه بالدموع، لقد ولد وعاش وأكل وشرب ونام وعشق وضحك وبكي، في ذلك المكان، فكيف سيتركه؟ والى أين سيذهب؟ لكن الشيخ حسين أردف قائلا

ـ هتروح منطقة الدراسة في حي الأزهر.. عند الحاج رضوان الأسيوطي.. ديه تاجر حبوب كبير.. هابعتك تشتغل عنديه.. ما تخافش ديه من عندينا من أسيوط.. وعشان تطمن عبد الرحمن راح يوصلك لحد عنديه ومش راح يسيبك واصل.. إلا لما تقوله بنفسك انك ارتحت..

فرح مسعود وقام وقبل رأس الشيخ حسين، تأمل ملامحه النقية، وكأنه ملاك أرسله الله إليه، لينقذه من طريق الضلال، ويرشده إلى طريق الهداية.

ـ أنت راجل صالح يا شيخ حسين.. ربنا بعتك ليا.. عشان تدلني على طريق ربنا اللي هجرته.. ومشيت في طريق الشيطان غصبن عني..

ـ اسمع يا مسعود يا ولدي.. في ذنوب بنعملها..ما يطهرهاش غير الابتلاء.. ذنوب محتاجة أكتر من الصلاة والصوم.. مش عايزك

تخاف من ضياع حقك.. أخواتك طيبين.. لكن الشيطان الملعون.. دخل بناتهم والفلوس غيرتهم.. أني هاروحلهم واكلمهم تاني.. وهافضل وراهم.. لحد ما يرجعولك حقك...

قام الشيخ حسين من مكانه، ومسح على رأس مسعود، ودعا الله له بالتثبيت، وأعطاه مسبحة، لكي يذكر الله عليها، ولكي تذكره بالشيخ حسين، كلما أخذته الدنيا، إلى طريق المعاصي.

ـ نتركك ترتاح دلوخت.. وفي الصبح تسافر ويا عبد الرحمن على مصر.

لم ينم مسعود طوال الليل، ظل يفكر، في تلك المعركة، التي خسرها بجدارة، تلك الغنيمة التي كان سيعود بها، من معركته في الصعيد، ذلك المبلغ، الذي كان بداية جيدة، في مشواره الجديد مع الحياة، كانت ستفرح به شربات كثيرا، لكن كرامته وكبريائه، أغلى من كنوز الأرض، لن يقبل أن تلقى إليه لقمة، لقد جاء ليأخذ حقه، في ميراث أبيه كاملا، وليست لقمة تلقى في فمه، ليصمت ويرحل في هدوء، لكنه ماذا سيقول لشربات؟ لقد قرر أن يذهب مع عبد الرحمن، للعمل عند الحاج رضوان، بعيدا عن ذلك المكان، الذي شهد كل أيامه السوداء، وحينما يستقر في عمله، سيعود ليتزوج من شربات، ويعيشا معا بعيدا عن قصر الأشباح.

• • •

٣٥

على رصيف المحطة، كان مسعود وعبد الرحمن، يستعدان لركوب القطار، الواقف على الرصيف، يصرخ بصوته الرهيب، في الركاب، للانتهاء من مراسم الوداع، حتى يغادر متجها إلى القاهرة. لمح عبد الرحمن، حسناء ابنة الحاج عثمان، تقف على الرصيف، وتستعد لركوب القطار، فتحرك على عجل، وجذب مسعود ناحيتها، حتى كاد أن يسقط تحت عجلات القطار، تمكنا من الركوب، هرع عبد الرحمن نحوها، وجلس بجوارها، نظرت إليه وابتسمت، فعدل من هيئته، تأمل وجهها الأبيض، الذي تلفه بحجابها، وخديها المتوردان، ثبت عيونه، في عيونها السوداء الواسعة، وشفتيها التي تقطر حمرة، رفعت رأسها في خجل

ـ رايحة فين اكديه يا حسناء؟

ـ نازلة أسيوط أشتري طلبات للحاجة فاطمة وراجعه طوالي

تأملها مسعود في صمت، وتمتم في سره، يبدو أن الشيخ عبد الرحمن، غارق لرأسه في العشق، ويبدو أن هذه الحسناء، قد ركبت القطار متعمدة، لكي تقابل حبيب القلب، تبا لهذا العشق، الذي لم يرحم حتى الأتقياء، تذكر شربات، التي تنتظره على رصيف محطة رمسيس، محملا بالغنائم، شربات التي تعشقه بلا

مبرر، ماذا سيقول لها، فشلت يا شربات، عدت إليك صفر اليدين، لا لن أعود، سأهبط على منطقة الأزهر، لأعمل وأكد، حتى أكون جدير بك قطع حواره الداخلي صوت الشيخ عبد الرحمن، وهو يحادث حسناء ويشير إلى مسعود

ـ عارفه مين اللي قاعد قدامك ديه يا حسناء؟

تفحصت ملامحه، وتطلعت إليه، تذكرت ذلك الضيف، الذي هبط على سرايا جدها بالأمس، وادعى أنه ابن جدها، كيف لجدها، ذلك الرجل الجسور سيد البلدة، أن يفعل تلك الفعلة، أن يتزوج من بائعة جرائد، ويتهرب منها، ويلقي بابنه على رصيف الحرمان، إن جدها ليس من هؤلاء الرجال الأنذال..

ـ أنت الجدع اللي كنت عندينا عشية وبتقول انك عمي.. معقول جدي يتجوز بياعة جرايد

كشر مسعود عن وجهه، وهم أن يقوم فيضربها، ونظر إلى عبد الرحمن في تنكر

ـ بياعة جرايد.. أيوه أنا عمك... وقومي انزلي من القطر لأضربك؟

كان القطار قد تحرك، فجذبه عبد الرحمن من ملابسه، وأجلسه بجواره، وأشار إلى حسناء أن تلتزم الصمت، حتى تعرف الحقيقة.

ـ إيه اللي بتقوله ديه يا مسعود!.. حسناء فاهمه الموضوع غلط.. هات الورق اللي معاك

نفخ مسعود في وجهها، ثم ألقى إلى عبد الرحمن بالحقيبة الجلدية، التي يضع فيها أوراقه، أخذها عبد الرحمن وأخرج منها الأوراق، وشرح لحسناء الورقة تلو الأخرى، حتى فهمت الموضوع برمته، وتأكدت من صدق قصة مسعود، فهي على ثقة، أن الشيخ حسين وولده عبد الرحمن، من الصعب أن يخدعهما أحدا، نظرت إلى مسعود نظرة اعتذار، وهمت أن تقوم فتقبل رأسه، غير أن صافرة القطار، قد قطعت عليها ذلك، لقد وصل القطار، محطة أسيوط، ولابد أن تهبط، فقامت من مكانها، وقبل أن تتوجه إلى الباب، ودعت عمها مسعود، ووعدته أن تساعده، في عودة حقه، فهي على تمام الثقة، أن أمها السيدة فاطمة الشريفة، لن ترضى، أن يسلب أبيها الحاج عثمان، حق أخيه مسعود، ستحكي لها كل ما سمعت ورأت، والتي بالتأكيد، ستجبر الحاج عثمان، على الانصياع إلى صوت الحق، كما أن عمها الحاج علي، رجل صالح، ولن يقبل أن يأكل حق أخيه.

• • •

٣٦

وصل مسعود بصحبة عبد الرحمن، إلى منطقة الدراسة بحي الأزهر، حيث وكالة غلال الحاج رضوان، الذي كان جالسا في مدخل الوكالة، على مكتب كبير وبيده الشيشة، ويبدو من هيئته، أنه صعيدي من الدرجة الأولى، بجسده القوي، وشاربه الكبير، وذقنه الكثيفة، التي تحتل نصف وجهه، والعمة البيضاء الكبيرة، التي تعلو رأسه، وجلبابه الواسع، وعلى كتفه الأيمن، تستقر عباءة من الصوف، رأى عبد الرحمن، فترك الشيشة، وهب واقفا من مكانه، دنى منه واحتضنه وقبل رأسه

ـ إيه الزيارة الكريمة ديه يا شيخ عبد الرحمن.. كيفك وكيف الشيخ حسين.. من ساعة ما رجعنا من الحج مع بعض..ما اتقابلناش واصل.. وسمعت إنه نزل مصر كتير.. وما جاش يسلم عليا.. كيف عاويده.. هو احنا زعلاناه في حاجة!

ـ حقك عليا يا حاج رضوان.. مشاغل والله.. الشيخ وقته متقسم... بين الجامع والكُتاب والأرض.. وأنت عارف الأرض ومشاغلها.

ـ الله يكون في العون.... أبوك راجل مبروك يا عبد الرحمن يا ولدي.. بنحب نتبارك بيه

جلس عبد الرحمن بجواره، بينما ظل مسعود واقفا، شرح له عبد الرحمن سبب الزيارة، عرفه على مسعود، ونقل إليه وصية والده

الشيخ حسين، بأن يجد له عملا بالوكالة، تطلع الحاج رضوان إلى مسعود، تأمل ملامحه القوية، وبنيانه المتين، سأله عن مؤهله الدراسي، فأخبره أنه قد تسرب من التعليم، بعد أن أتم المرحلة الإعدادية، فعرف العمل اللائق به، كلفه بأن يعمل حمالا، ينزل الأجولة الممتلئة بالحبوب، من فوق عربات النقل الكبيرة، وينقلها إلى مخازن الوكالة، ويقوم بتحميل الأجولة، من المخازن إلى عربات تجار التجزئة.

مع مرور الوقت، شعر مسعود بالراحة النفسية، من العمل مع الحاج رضوان، فكان يعمل طوال النهار في الوكالة، وفى المساء، ينام في أحد المخازن القديمة، التي خصصها الحاج رضوان للعمال المغتربين، وأغلبهم من الصعيد، وذلك ليخفف عنهم، أعباء ارتفاع أسعار الإيجارات، وليسهل عليهم التواجد في الوكالة طوال الوقت، تحسبا لوصول البضائع في أي وقت من اليوم.

كان الحاج رضوان رجلا كريما، يغدق على عماله العطايا، ويقدم لهم وجبات يومية، ويعاملهم كأنهم أبناء عائلته، لكنه اشترط فيمن يعمل عنده، أن يلتزم بأداء الصلاة في أوقاتها، فكان العمال يفترشون أرضية المخزن، بالأجولة الفارغة، ويصلوا في جماعة.

تعرف مسعود على الكثير منهم، فكانوا يخرجون في المساء، للجلوس على أحد المقاهي القريبة، يشربون الشاي ويدخنون الشيشة، ويلعبون الدمنة، ويشاهدون مباريات كرة القدم.

أكثر ما كان يريح، قلب وعقل وجسد مسعود، هو تعلقه بالصلاة، كان يشعر بالراحة النفسية، وهو يضع رأسه على الأرض، يسجد ويبكي لعله يقترب، يذكر الله بالمسبحة، التي أعطاه إياها الشيخ حسين. فيتذكر ذلك الرجل الصالح، الذي غير حياته للأفضل، حاول أن يقلده، فكان يقضي يوم الجمعة، الإجازة الأسبوعية للوكالة، في التنقل بين مساجد أولياء الله الصالحين.

لم يشعر مسعود، بكم الأيام التي مرت عليه، حتى حن إلى شربات، تلك البنت التي تذوب عشقا به، كيف حالها الآن!، بالتأكيد تلح عليها الظنون، بأن مسعود قد حصل على ميراثه، وانتقل إلى طبقة الأغنياء، وركل عشقها بعرض الحائط، لم تعد شربات، تصلح للزواج من مسعود بك الدكش، ابن الأثرياء، بالتأكيد سيفتش، عن فتاة من نفس مستواه الاجتماعي، لن تدرك أنه، ما زال قابعا في قاع الفقر، يتمرغ فيه، يظل طوال النهار، يحمل أجولة الحبوب على ظهره، حتى أوشك على الانحناء.

أخذه الحنين لرؤية شربات، خشي أن يكون، قد أصابها مكروه، فقرر أن يحصل على مستحقاته، من الحاج رضوان، ويستأذنه في الذهاب لرؤية أهله، فسمح له في الذهاب لرؤية أهله، ولكنه اشترط عليه، أن يعود إلي الوكالة بعد أسبوع.

• • •

١٣٧

عاد مسعود إلى حلوان، ما أن دلف إلى القصر، حتى لاحظ حركة غير عادية، الدعاية الانتخابية تغطي جدران القصر، من الخارج والداخل، صور شوقي الجوهري، معلقة في جميع أنحاء حلوان، والأغاني الوطنية، تتردد في أرجاء القصر، إنه موسم الانتخابات، تلك (السبوبة) التي يستفيد منها الجميع، حتى أبوسكر يقود التوكتوك، في سعادة بالغة، ينقل الناخبين من منازلهم، إلى اللجان الانتخابية، سبحان مغير الأحوال، ماذا حدث لك يا أبوسكر، أنسيت كوارث الرجل بسهولة هكذا.

رأى مسعود أعدادا غفيرة، من المتسولين والباعة الجوالين ورواد القصر، يحملون الدعايات الانتخابية، استعدادا للانتشار في شوارع حلوان وميادينها، رافعين صور شوقي الجوهري، ورمزه الانتخابي (السلم)، الذي سيصعد به إلى القمة، ثم يركلهم بقدميه نحو القاع.

لمح سكر تقف أمام غرفتهم، وما أن رأته، حتى هرعت نحوه فرحة، نادت على أمها، فخرجت وخلفها بناتها، يرتدون ملابس جديدة، ويحملون صور شوقي الجوهري، استعدادا للتوجه إلى اللجان الانتخابية، لعمل الدعاية اللازمة، اقتربت أم سكر من مسعود

ـ مسعود... حمد الله على السلامة.. كنت فين كل ده!.. البت شربات هتتجنن عليك

ـ كنت عند أهلي في الصعيد.. أزيكم كلكم وحشتوني.. هي إيه الحكاية؟

ـ شوقي بيه الجوهري.. جاه وزانا هنا ووزع فلوس ياما.. ووعدنا لو نجح في الانتخابات هيدينا شقة نعيش فيها.. وهيشغل أبوسكر في مصنع من مصانعه..

هز مسعود رأسه وابتسم، محدثا نفسه، منذ متى؟! والناس تصدق تلك الدعايات الكاذبة، أنها كبسولات مخدرة ووعود براقة، سحب صيفية محملة بالمياه، لكنها لن تمطر أبدا، تكدر مسعود، حينما رأى الخديوي عتريس، يقف في شرفة الطابق الثاني، منتفشا كشمشون وبجواره عباس، يرافقه كظله، ونوال ترتدي فستان، يحتل علم مصر معظم أجزاءه.

ترك أم سكر ودخل غرفته، فوجدها نظيفة، وملابسه معلقة على الحبل، كانت سكر تنظفها يوميا وترشها بالمياه، في انتظار عودة مسعود، تظل فيها طوال النهار، تستذكر دروسها، خشية أن يستولي عليها أحد، وفي الليل تتركها، وتنام مع أخوتها، ألقى مسعود بجسده على الأرض، وراح يحملق في السقف، يفكر في شربات، وتلك المقابلة التي يخشاها، دخلت عليه سكر، تحمل صينية الطعام، وكوبا من الشاي الساخن، فقام من رقاده، وأسند ظهره على الحائط، اقتربت منه في حنان

ـ كنت قلقانه عليك أوي يا عم مسعود.. ومش أنا بس

ـ قصدك شربات

ـ وأستاذة ندى.. وأستاذة هالة الصحفية.. سألت عليك كتير..

مدت يدها، وقطعت لقمة من الخبز، ووضعتها في فمه، فمسح على شعرها، وسألها عن دراستها، فأخبرته أنها قد أنهت، الفصل الدراسي الأول بنجاح، وهي الآن في أجازة نصف العام، فسألها عن الكتاب الذي تحمله بين يديها

ـ دي رواية اسمها يوتوبيا لكاتب اسمه أحمد خالد توفيق.. بس ممتعه جدا

أخذها من يدها، رأى الغلاف، وتصفحها في إعجاب، ثم ردها إليها، سألها عن المذياع، الذي كانت تحمله دوما بين يديها، فأخرجته من جيبها، وأدارته بسرعة، فصدر منه صوت إذاعة القران الكريم، فابتسم مسعود، وأخذه منها قبله، ثم أعاده إليها، طلبت منه أن يستكمل طعامه، فأخذ عدة لقيمات، ثم مسح يده في ملابسه، أخذ كوب الشاي، ارتشف منه عدة رشفات، وأشعل سيجارة، وأطلق دخانها في الهواء.

حكت سكر لمسعود، عن ما حدث في القصر، خلال فترة غيابه، من عودة عباس إلى الظهور من جديد، ليجمع الإتاوة لعتريس، وعن تلك العلاقة، التي ظهرت بين عباس ونوال، وعن تلك الصفقة، التي عقدها شوقي الجوهري مع عتريس، لمساعدته في

شـراء أصـوات الناخبيـن، وعـن وعـود شـوقي الجوهـري، لأبيهـا أبوسـكر بشـقة، ووظيفـة فـي أحـد مصانعـه.

اندهـش مسـعود، مـن هـذه الطفلـة الصغيـرة، التـي تسـتوعب كل مـا يـدور حولهـا، بمنتهـى البسـاطة، وذلـك بفضـل المذيـاع، الـذي وسـع مداركهـا، والكتـاب الـذي تحملـه بيـن يديهـا، فصـارت كأروع مثقـف. دخلـت عليهمـا أم سـكر، نـادت علـى ابنتهـا، لكـي يتحركـوا مـع رواد القصـر، إلـى مقـر اللجـان الانتخابيـة، طلبـت مـن مسـعود، أن يأتـي معهـم، لكنـه رفـض، وفضـل البقـاء بداخـل القصـر.

ظـل مسـعود بغرفتـه، حتـى غلبـه النـوم، فلـم يسـتيقظ، إلا علـى صـوت الاحتفـالات والأغانـي والهتافـات، التـي تلـف أرجـاء القصـر، احتفـالا بفـوز شـوقي الجوهـري، فـي الانتخابـات باكتسـاح، علـى غريمـه المعتـاد، رجـل الأعمـال فتحـي الدمنهـوري، وبـدأ الجميـع يمنـي نفسـه، بتلـك الوعـود البراقـة، التـي حصـل عليهـا، مـن مرشـحه الـذي أعطـى لـه صوتـه، شـوقي الجوهـري، الـذي أصبـح ممثلهـم فـي البرلمـان.

• • •

١٣٨

في الصباح، كان مسعود جالسا على شاطئ النهر، يلقي بصنارته في الماء، ينتظر أن تلتقط سمكة، وبجواره كوبا من الشاي الساخن، يرتشف منه على فترات، وبين أصابعه سيجارة، أوشكت على الانطفاء، شعر بيد تتحسس جسده، وتحتضن ظهره بقوة، لم يلتفت إليها، لقد عرفها، منذ أن التصق جسدها بجسده، إنها شربات، فليس هناك أحدا في هذا الكون، يسأل عنه، أو يشعر بغيابه سواها، قبلت رأسه ونظرت في عيونه البنية

- زعلانه منك.. رجعت من الصعيد ولا عبرتني.. هنت عليك يا مسعود.. تغيب عني ولا حس ولا خبر.. روحتلك القصر أكتر من مره.. وانتظرتك كتير على رصيف المحطة.. احكيلي كنت فين كل ده.. وعملت إيه.. طمني عليك

حدق في عيونها، والدموع تكاد أن تهرع من عيونه، أمسك يدها وقبلها، ومسح على شعرها، حاول أن يبتسم، لكن الابتسامة هاربة من ملامحه، علامات اليأس وخيبة الأمل، تسيطر عليه، لقد خسر المعركة، وعاد مترجلا بلا مال ولا جاه..

- زي ما قولتلك.. ملناش حظ في الدنيا دي.. حتى في حقوقنا مضحوك علينا

شعرت شربات، بمدى الألم الذي يعتصر قلبه، فلم تحاول أن تزيد من همومه، بكلمات جارحة، لا طائل منها، حاولت أن تخفف عنه كسرة قلبه، أن تكون الشاطئ، الذي يرسو عليه، حينما تهب عليه رياح الحزن، قبلت يده، ودموعها تكاد أن تمطر بغزارة، ولكنها تماسكت، حتى لا تشعره بمدى حزنها، حكى لها كل ما حدث، منذ ركوبه القطار، متوجها إلى الصعيد، حتى خرج من وكالة الحاج رضوان، لكي يأتي ويطمئن عليها، مسحت على شعره، أمسكت يده بقوة، التصقت بجسده، طبعت قبلة على خده وابتسمت

ـ ولا يهمك يا حبيبي.. كفاية وجودك معايا.. عندي بالدنيا..

ـ مش زعلانه يا شربات

ـ مش أنت عملت اللي عليك.. خلاص..

نظر في وجهها، فرأى الهالات السوداء تحيط بعينيها، والشحوب يلون وجهها، أين ذهبت نضارة وجهها، لاحظ أنها ترتدي ملابس سوداء كاملة، خشي أن يكون، قد أصاب خالته مكروه، فالهزال والضعف، وتلك الملابس السوداء، أكبر دليل على وجود حزن شديد، سألها في جذع عن القصة، فأخبرته والدموع تهرع من عيونها بشدة

ـ البت صباح ماتت..

شهق شهقة شديدة، وارتجف قلبه، عرف منها القصة بصعوبة،

لقد تهرب منها ذلك النذل، طالبها أن تسقط، ذلك الطفل المكوم في رحمها، لم يكن لديها اختيار، سوى أن تسقطه، حتى لا يفتضح أمرها، وتسوء سمعتها، حاولت إجهاض نفسها، فحدث لها نزيف شديد، وتم نقلها إلى المستشفى، لكن الأطباء لم يستطيعوا إسعافها، ففارقت الحياة، وبعدها بعدة أيام، توفى والدها هما وحزنا، على ما آل إليه مصير ابنته.

فار الدم في عروق مسعود، وتوعد عباس بالانتقام، فاندهشت شربات من معرفته، أن ذلك النذل هو عباس، فاخبرها إنه رآه معها في القصر، ولاحظ أنهما كانا في حالة شجار، وحينما رأته ارتبكت، فأكدت له أن عباس هو ذلك النذل، الذي أودى بحياة صديقة عمرها صباح. حاولت شربات، أن تغيير من تلك الأجواء الحزينة، فقالت في محاولة لتغيير حالته المزاجية

ـ هاله سألت عليك.. وعايزاك تروحلها الجورنال ضروري..

ابتسم مسعود، تذكر غيرتها عليه، حينما أصرت، أن تذهب معه إلى هالة، كانت خائفة أن يأخذ ميراث أبيه، ويبحث عن غيرها، أما الآن، بعدما عاد صفر اليدين، لم تعد تغار عليه، تبا لعقول النساء، يعتقدون أن الرجل حينما يحصل ثروة، أول شيء يفكر به، أن يستثمرها في النساء.

نظر في عيونها، دنى من وجهها، ليطبع قبله على خديها، لكنه قطع عليه تلك اللحظة الرومانسية، تلك الصنارة التي تحركت،

وكأنها قد أوقعت، سمكة كبيرة في فخها، ترك مسعود يد شربات، وسحب الصنارة بقوة، وهما في قمة السعادة، في انتظار ذلك الصيد الثمين، حتى وصل إلى أخرها، فوجدها فردة حذاء قديمة، فضحكا ضحكا هستيريا، فألقى مسعود بالصنارة في النهر، وسحب شربات من يدها، وانصرفا بعيدا عن النهر.

• • •

١٣٩

جلس مراد سلام في الصالة، يتصفح جريدة، وبجواره زوجته فريدة، تحادث ابنها فؤاد عبر الهاتف، ويبدو عليها الألم والحسرة، والدموع تترقرق من عيونها.

ـ معلش يا بني استحمل.. أنت راجل يا حبيبي.. أن شاء الله ربنا حيكرمك..بس أنت أصبر.. ترجع أزاي بس.. إحنا لسه بنسدد تمن عقد العمل والتأشيرة.. فؤاد.. الو..فؤاد

أغلقت الهاتف، ووضعته بجوارها، بكت وكأنها لم تبكي من قبل، حاول مراد سلام أن يتجاهل ما حدث، فلم يعلق على ما دار بالمحادثة، ولم يسأل عن تفاصيلها، فما حدث كان متوقعا، فؤاد ليس لديه قدرة، على التعايش في الغربة، ليس لديه الصبر، على احتمال المهانة، فؤاد خريج كلية الهندسة، كان يمني نفسه، أن يصبح معيدا في الجامعة، أو يعمل في أحد الشركات الكبرى، لكن ليس باليد حيلة، فليس لديهم واسطة، لكي يلتحقوا بذلك العالم، الذي سيطرت فيه المحسوبية، على كل شيء، تجاهل نظرات زوجته الغاضبة، التي تشبه طلقات الرصاص، سحبت الجريدة من يده بعنف، وألقتها بعيدا عنه، وصرخت في وجهه

ـ أتصرف يا مراد.. الكفيل أخد جواز السفر ورافض يديله الراتب.. والولد مصمم يرجع

ـ قوليلي أنا بايدي إيه.. هو فؤاد ده ابنك أنتي وبس.. ما أنتي شايفه الحال اللي إحنا فيه.. ده لولا مساعدة هالة في مصاريف البيت كنت شحتنا.. أنتي ناسيه أن المعاش بيروح أقساط للقرض اللي عملته عشان يسافر

ـ بصراحة أنا تعبت.. البنت اللي على وش جواز... والشقة اللي شرخت من كل ناحية... والولد اللي تعبان في الغربة.. أنا زهقت.. ونفسي أغور من هنا بقه

ـ هنغور نروح فين.. نروح لفؤاد الخليج.. ولا لأختك في أستراليا..

ـ ياريتنا هاجرنا مع أختي.. بس أنت اللي نشفت دماغك.. وعملت فيها وطني..

بينما الحوار على أشده، فتحت هالة باب الشقة ودخلت، بينما ظل مسعود، واقفا أمام باب الشقة، في انتظار الإذن بالدخول، أخبرت والدها بأن مسعود معها، فأشار إليها، أن تدخله غرفة مكتبه، فقامت أمها، ورمقت مسعود باشمئزاز، بملابسه الرثة، وهيئته المتواضعة، وحذاءه المتسخ، أشارت إليه باشمئزاز وكأنه حشرة، ترفض دخولها البيت.

ـ أنت..انتظر عندك.. رايح فين.. اخلع الجزمة دي بره.. جتك القرف..

شعر مسعود بالحرج، فاعتذرت إليه هالة، ودعته لدخول مكتب والدها، تاركة أمها تغلي من الغيظ، دخلت هالة وخلفها مسعود،

إلـى غرفـة مكتـب والدهـا، كان جالسـا خلـف مكتبـه، قـام وصافـح مسـعود، وأجلسـه أمامـه.

تلفت مسعود حوله، تأمل تلك المكتبة الضخمة، التي تسد الحائط بـآلاف الكتـب، تلـك الموسـيقى الهادئـة، التـي تنبعـث مـن جهـاز جرامافون عتيق، تلك اللوحات الفنية، المعلقة على جدران الغرفة، الذي يئن من التشقق، تلك (الأنتيكات) القديمة، المرصوصة على المكتب والجدران، ذلك الجو الذي يشعرك، بأنك بداخل مكتبة أو متحف قديم، أشارت إليه هالة

ـ ده مسعود اللي حكتلك عنه.. يا بابا

ـ أهلا يا مسعود.. باين عليه راجل وابن بلد.. أنا يعجبني الشباب اللي زيك.. اللي مهما الدنيا طحنتهم.. عايشين وراضيين.. هي دي طبيعة ابن البلد الأصيل

شـعر مسـعود بالراحـة النفسـية مـن كلماتـه، تذكـر الشـيخ حسـين، وكلماتـه الطيبـة، التـي شـرحت صـدره، للرضـا بقضـاء الله وقـدره، مد يده في جيبه، تحسس المسبحة، التي أهداها إليه، تذكر المسجد الذي لم يدخله، منذ أن قدم إلى حلوان، كانت أخر ركعاته، تلك التـي صلاهـا فـي مخـزن الحـاج رضـوان. شـعر بالحـزن، لابتعـاده عـن حيـاة الاسـتقامة، التـي ألفهـا منـذ أن رأى، وجـه الشـيخ حسـين، يبـدو أن ذلـك القصـر، ملعـون بمـن فيـه.. أفـاق علـى صـوت هالـة تحب تشرب إيه يا مسعود..

ـ يا ريت شاي تقيل..

خرجت هالة لتحضر الشاي، وبدأ مراد سلام، يحكي لمسعود عن عمله، وظروف حياته المعيشية، وظروف ابنه فؤاد، الذي يعاني في الخليج، ورغبة زوجته، في الهجرة إلى أستراليا، وما أن انتهى من شكواه، حتى أحضرت هالة الشاي، وجلست معهما، ومسعود يأخذ موضعه، على كرسي الاعتراف، ليسرد حياته في القصر، وحكاية أمه، وما حدث معه في الصعيد، والظلم الذي تعرض له من إخوته، حكى عن شربات، التي تحلم بالزواج منه، حتى تطرق الحديث، عن القصر والسرداب، وهؤلاء الرجال، الذين يحفرون بحثا، عن مجوهرات الأميرة، أمينة إلهامي زوجة الخديوي توفيق، والتي لا تقدر بثمن. فقال له مراد سلام، في محاولة لعقد اتفاق بينهما

ـ الجماعة دول معاهم خريطة هتوصلهم لمجوهرات الأميرة أمينة مرات الخديوي توفيق

فسأله مسعود عن قيمة تلك المجوهرات، التي يفتشون عنها، فقال مراد سلام في فخر

ـ دي مجوهرات لا تقدر بثمن.. لقيمتها المادية والتاريخية..

نظرت هالة إلى مسعود بإعجاب، شكرته على عودة آلة التصوير، التي أتاحت لها الفرصة،لإعداد التقرير الصحفي عن القصر،

والـذي لاقـى إعجابـا كبيـرا، وجعـل الجريـدة تحقـق مبيعـات كبيـرة، وعلـى الرغـم مـن عـدم اهتمـام الحكومـة، أو اتخـاذ أي إجـراء ضـد تلـك العصابـة، التـي تسـيطر علـى القصـر، لكنهـا طلبـت منـه، أن يهتـم بموضـوع السـرداب، وهـؤلاء الرجـال الذيـن يحفـرون بداخلـه، للحصـول علـى مجوهـرات الأميـرة أمينـة. طلـب منـه مـراد سـلام، أن يراقـب مدخـل السـرداب، بمنتهـى الحيطـة والدقـة، ويتابـع الأحـداث، ويخبـره بهـا أولا بـأول.

• • •

٤٠

منذ أن وضعت الانتخابات أوزارها، بفوز شوقي الجوهري، وتجددت آمال أبو سكر وأسرته، في الانتقال من الجحر الذي يعيشون بداخله، إلى شقة جديدة، وترك العمل على التوكتوك، والالتحاق بأحد مصانع الجوهري. بدأ أبو سكر في ملاحقة شوقي الجوهري، لإنجاز وعده، لكنه فشل، حتى أن يصل إليه.

مرت الأيام، والوضع كما هو لم يتغير، بل شعر أبو سكر بالذل والمهانة، وهو يلاحقه بلا جدوى، حتى فقد الأمل، في الخروج من هذا الوضع السخيف، الذي لا يطاق، فعادت حالته النفسية، إلى ما كانت عليها، فأصبح منطويا بعض الشيء، متحفظا في علاقاته مع الآخرين، أصبح لا يطيق زوجته ولا بناته، شعر بالانكسار، فهرب إلى توكتوكه وسيجارته وحبات المخدرات التي أدمنها.

عاودت أم سكر، التضجر من ذلك الوضع السيئ، تشكو دائما، تصرخ في بناتها، تتودد إلى مسعود، لكي يمنحها حضنا، يبرد نار شوقها. أما سكر، فكانت تهرب من كل تلك الاضطرابات، إلى غرفة مسعود، فتقضي بداخلها كل وقتها، ما بين المذاكرة، والقراءة، والاستماع إلى الإذاعة.

ذات صباح، استيقظ مسعود، على صوت أم سكر، تبكي وتولول، فهرع نحو غرفتها، فوجدها تضرب فخذيها، وتلطم خدها الذي تشبع بالحمرة، واللون الأسود يسيل مع دموعها، بينما بناتها منكمشون في حضن سكر، حاول أن يهدئ من روعها، ليفهم منها القصة، فأخبرته أن أبو سكر، راقدا في التوكتوك، لا يحرك ساكنا، فهرع نحوه، فوجده راقدا في الكرسي الخلفي في التوكتوك، عيناه مغمضتان، ويديه راقدتان بجواره، وقلبه بلا نبضات، وصدره بلا أنفاس، لقد أسلم الروح في سلام.

بعد الانتهاء من تشييع جنازة أبو سكر، أصبحت أسرته بلا دخل، يعيشون منه، حاول مسعود أن يقدم إليهم المساعدة، فأعطاهم بعضا من المال، الذي تبقى معه، من عمله في الوكالة. فكر أن يعمل على التوكتوك، ليدر عليهم دخلا يساعدهم، بدلا من أن يأكله الصدأ، كما أن مسعود، منذ أن عاد إلى القصر، أصبح بلا عمل، لقد حل عباس، مكانه في جمع الإتاوات، لم يعد عتريس يسأل عنه، لقد أسقطه من حساباته، بعدما عرف، أنه من سلط عليه الجوهري، فخطفه من بين رجاله كطفل صغير، وفعل معه ما فعل.

عرض مسعود على أم سكر، أن يقود التوكتوك، والدخل الذي يأتي منه، يأخذ منه مسعود يومية، يعيش منها، والباقي تعيش

منـه أم سـكر وبناتهـا، فوافقـت بشـدة، بـل شـكرته، علـى صنيعـه مـع بناتهـا، وقـررت أن تبحـث، عـن أي عمـل، حتـى تسـتطيع أن تنتقـل إلـى شـقة، بعيـدا عـن أجـواء القصـر، وخوفـا علـى بناتهـا، مـن رواده الملطخـون بالجريمـة.

مـرت الأيـام، وإيـراد التوكتـوك، يصـل إلـى أم سـكر، أولا بـأول، فرحـت بكـم الدخـل، الـذي يحققـه التوكتـوك، والـذي لـم تشـعر بـه، حينمـا كان أبـو سـكر يقـوده، لقـد كان يضيـع دخلـه، علـى الحبـوب المخـدرة والسـجائر.

بـدأ مسـعود يلاحـظ، أن عبـاس بـدأ يتـودد إلـى أم سـكر، رآهـا تقـف معـه كثيـرا، بـل بـدأ يتـردد علـى غرفتهـم، وحينمـا سـألها عـن السـبب، ارتبكـت وتهربـت مـن الإجابـة، وحينمـا ألـح عليهـا، أخبرتـه أن عتريـس، يرسـل معـه بعـض المسـاعدات، كمـا أنـه قـد وجـد لهـا عمـلا، فـي أحـد الشـقق المفروشـة، لكنـه لـم يقتنـع.

بينمـا كانـت سـكر، تسـتذكر دروسـها فـي غرفتـه، سـألها مسـعود، عـن علاقـة أمهـا بعبـاس، شـعر بالخجـل يطـل مـن ملامحهـا، أخبرتـه والحسـرة فـي عينيهـا، أنهـا رأت أمهـا، فـي أحضـان عبـاس أكثـر مـن مـرة، سـكتت مـرة وأخـرى، لكنهـا لـم تسـتطع، الاسـتمرار فـي الصمـت، اسـتيقظت ذات صبـاح فوجدتـه، يعتصـر جسـد أمهـا، فصرخـت فيهمـا، وطلبـت منـه أن يخـرج مـن الغرفـة، بعدهـا تكومـت فـي فراشـها، وظلـت تبكـي. شـعرت أمهـا بالخـزي، حاولـت أن تطيـب

خاطرها، لكن انهالت عليها بالسباب والشتيمة، فما كان من أمها، إلا أن صفعتها على وجهها، بعدها منعت أمها عباس، من دخول الغرفة، وأغلب الظن، أنها كانت تذهب إليه في غرفته. غلى الدم في عروق مسعود، وقرر أن يُوقف تلك المهزلة.

طلب مسعود من أم سكر، أن تفسر تلك العلاقة المشبوهة، التي قد تؤدي بسمعة بناتها، حذرها من عباس، حكى لها حكايته مع صباح، تلك البنت التي خدعها، حتى انتهى بها الأمر، أن حاولت إجهاض نفسها، فماتت جراء تلك الفعلة، لكنها رفضت الاستماع إلى نصائحه، وقررت الاستمرار في غيها.

فما كان من مسعود، إلا أن خيرها، ما بين الابتعاد عن عباس، أو أن يترك العمل على التوكتوك، وتتولى هي أمره، فأخبرته أنها حرة في حياتها، وأنه ليس وصيا عليها، وعلى بناتها، فأخرج مسعود من جيبه مفتاح التوكتوك، ووضعه في يديها، وتركها وانصرف في صمت.

لم تضيع أم سكر الوقت، في صباح اليوم التالي، كان عباس يركب التوكتوك، وأصبح وجوده في حياة أسرة سكر أمرا واقعا، فعاد إلى دخول الغرفة من جديد، وفرض نفسه على بناتها، فلم يستطيع مسعود، أن يدخل نفسه في مشاكل، من أجل أم سكر، التي باعت نفسها للشيطان، رغم خوفه الشديد، على سكر وأخوتها، فكان يتابع أخبارهن من بعيد.

لكن الأمر لم يطل، بينما كان مسعود جالسا في غرفته، حتى قدمت عليه سكر تبكي، لقد اختفت أمها، فتشت عنها في كل مكان، ولكنها فشلت في العثور عليها، لقد أخذت جميع ملابسها، واختفت تماما، ذابت كما يذوب الملح في الماء. فتش مسعود عنها في كل مكان، فلم يجدها، سأل عن عباس فلم يجده، لقد اختفى هو الأخر، لقد وضحت الرؤية، لقد هربا سويا، وأخذا معهما توكتوك أبو سكر.

• • •

١٤١

منذ أن عاد مسعود إلى القصر، بعد زيارته السريعة إلى بيت مراد سلام، وهو يتابع تحركات هؤلاء الرجال الأربعة، الذين يحفرون بكل همة ونشاط، في مدخل السرداب، الذي يصل حتى ركن الخديوي توفيق، الذي كان يجلس فيه مع ضيوفه، والذي بداخله خزينة كبيرة، مع غرفة خاصة تحت القصر للأميرة خديجة ابنته، الغرفة التي تم ردمها حفاظاً، على البنية التحتية للقصر، فأصبح السرداب مسدودا، بأكوام من التراب والحجارة والركام.

ذات مساء، وقبيل آذان الفجر، حاول مسعود النوم، بينما هؤلاء الرجال، ماذا زالوا يحفرون، أمام السرداب، حتى تلك الساعات المتأخرة من الليل، على غير عادتهم، كانت ضرباتهم تسبب له صداعا شديدا، فلم يستطيع النوم، فقام مفزوعا، بعدما بلغ الصداع مبلغه، هرول نحوهم ليطالبهم، أن يرحموا رأسه الليلة، لكي يستطيع النوم، ولو لدقائق معدودة، من ذلك الليل الذي لا يريد أن ينتهي.

دنى منهم، فلم يشعروا بوجوده، فتخفى بعيدا عنهم، استطاع رؤيتهم عن قرب، إنهم أربعة رجال، ثلاثة منهم يحفرون الأرض، في مدخل السرداب، بينما رابعهم يتابع أعمالهم.

إنـه المهنـدس سـامي نصيـر، والـذي كان يجلـس فـي مكتبـه بهيئـة الآثـار، حينمـا قـدم عليـه أحـد أصدقـاءه، ويدعـى طـه شـاكر، وعـرض عليـه خريطـة، حصـل عليهـا بالمصادفـة، والتـي تشـير إلـى وجـود مجوهـرات الأميـرة أمينـة إلهامـي، زوجـة الخديـوي توفيـق، فـي سـرداب قصـر عيـن الحيـاة بحلـوان، واتفـق الاثنـان، علـى الحصـول علـى المجوهـرات واقتسـامها، وقدمـا إلـى القصـر واتفقـا مـع الخديـوي عتريـس، علـى الإذن لهمـا بالحفـر، بحجـة أنهمـا يفتشـان، عـن مقبـرة فرعونيـة، تقبـع تحـت سـرداب القصـر، علـى أن يحصـل منهمـا، علـى حقـه فـي الكنـز المدفـون، بعدمـا يتـم العثـور عليـه. مـا أن بـدأ الحفـر، حتـى حـدث خـلاف، بيـن سـامي وصديقـه طـه شـاكر، انتهـى بـأن قتـل سـامي، صديقـه طـه وهـرب، وقيـدت الجريمـة ضـد مجهـول، توقفـت بعدهـا أعمـال الحفـر، حتـى عـاد المهنـدس سـامي مـن جديـد، ومعـه ثلاثـة رجـال، يعملـون معـه فـي الهيئـة، يحفـرون بـكل همـة ونشـاط، فـي أيـام محـددة مـن الأسـبوع، وفـي أوقـات محـددة مـن اليـوم، حتـى لا يلفتـون نظـر رواد القصـر.

فجـأة، أشـار إليهـم المهنـدس سـامي بالتوقـف، ونـزل إلـى موضـع الحفـر، شـاهد قطعـة كبيـرة مـن الحجـارة، تسـد مدخـل السـرداب، فأمرهـم أن يرفعوهـا، وبعـد محـاولات شـاقة، وعـن طريـق أدواتهـم اسـتطاعوا رفعهـا، فأشـار إليهـم بالتوقـف مـرة أخـرى، ونـزل إلـى موضـع الحفـر مـن جديـد، فـرأى بابـا كبيـرا، ففـرح وظهـرت أسـنانه

البيضاء، مع ضوء الكشافات التي يحملونها، فتح الخريطة، التي أخرجها من جيب سترته، وقال في سعادة

أخيرا وصلنا لباب السرداب.. بكره وبمجرد ما نفتح الباب.. هنلاقي سرداب طويل نمشي فيه حوالي ٢٠٠ متر، وعلى الحيطة هنلاقي علامة مرسومة، وتحتها في الأرض، هنلاقي حفرة صغيرة، هنكمل حفرها، لحد ما نلاقي، صندوق المجوهرات

بادره أحد رجاله، في سعادة بالغة، ويبدو عليه الهمة والنشاط

ـ ما نكمل حفر دلوقت يا بشمهندس سامي....

رد عليه سامي في مكر، نظر بعيون شرهة، إلى باب السرداب، ونظر بخوف وريبة، إلى الرجال الواقفون بفؤوسهم، ينتظرون إشارة البدء، ليحولوا باب السرداب إلى تراب.

ـ لازم نستعد كويس.. السرداب مقفول من سنين طويلة..ومحدش عارف وراه إيه.. أنا خايف عليكم.. مع نور الصبح... حنقدر نشوف ونتحرك بسهولة

لكن أحد رجاله، ضرب بفأسه على الأرض، وقال في غضب

ـ أنا مش حامشي من هنا.. إلا والمجوهرات في أيدي..

دب الخلاف بينهم، ما بين مؤيد ومعارض، مما أدى إلى سخط المهندس سامي، فصرخ فيهم

ـ أنا اللي معايا الخريطة.. وكلامي هو اللي يمشي

كانت تلك الكلمات، كفيلة بأن يستقر الشك، في قلوبهم جميعا،

واتفق الرجال، أن يتم فتح باب السرداب، واقتسام محتويات الصندوق، وبعدها يرحل كل منهم، إلى حال سبيله.

نظر إليهم بغضب، لكنه خشي من تهورهم، أن يضربه أحدهم، بفأسه فيقضي عليه، ويحصلوا على الصندوق. فأنصاع إلى طلبهم، وسمح لهم بفتح باب السرداب، فانشرحت صدورهم، وعاودوا العمل في جد ونشاط، ومسعود يتابعهم من بعيد، دون أن يشعروا به، لقد كانت رغبتهم في الحصول على الصندوق، أكبر من أن يلتفتوا ورائهم.

مرت عدة دقائق من الحفر، حتى استطاعوا فتح الباب، وأصبح الطريق مفتوحا أمامهم، للوصول إلى الصندوق، سلطوا أضواء كشافاتهم، بداخل السرداب فتحول إلى نهار. ما أن خطوا أول خطوة بداخل السرداب، حتى ظهر أمامهم ثعبان كبير، أطل برأسه ناحيتهم، وحرك لسانه في محاولة للانقضاض على أحدهم، فارتعد الرجال، صرخ فيهم المهندس، وأخرج مسدسا كاتما للصوت من جيبه، وأطلق عدة طلقات نارية، أودت بحياة الثعبان، فارتمى بجوارهم على الأرض، بمجرد أن رأى الرجال، المسدس الذي بحوزة المهندس سامي، حتى بدأ الشك يجتاح قلوبهم، وأدركوا بأنه لا يريد بهم خيرا، نظروا إلى بعضهم البعض، وتوحدت أفكارهم، لكنهم استمروا في السير، بداخل السرداب، حتى وصلوا إلى العلامات، وفتشوا تحت أقدامهم، عن الحفرة الصغيرة، حتى

وجدوها، فأشار إليهم المهندس، أن يحفروا تحت أقدامهم، فشرعوا في الحفر، وعلى عمق متر ونصف، ظهر صندوق صغير، حفروا حوله، حتى بدا جليا أمامهم، فعلت الفرحة وجوههم، وتعالت صيحاتهم وقهقهاتهم العالية. أشار إليهم المهندس، أن يرفعوه إلى سطح الأرض، فرفعوه حتى استقر أمامهم، ولمعت عيونهم، وضوء الكشافات مسلطة عليه، فأشار أحدهم، أن يتم فتح الصندوق، لكن المهندس طلب منهم، أن يخرجوا الآن من القصر، على أن يتم، فتح الصندوق واقتسامه، فيما بعد، لكنهم أصروا أن يتم فتح الصندوق، وتقسيم محتوياته في الحال، وبعدها يرحل كل منهم، إلى حال سبيله.

شعر المهندس بالخطر من اجتماع الثلاثة ضده، وأن ما بداخل الصندوق، ليست جنيهات، سيتم عدها والقسمة على أربعة، إنها مجوهرات لا تقدر بثمن، ولا يمكن أن يتم توزيعها، على عدة أشخاص، إنما يجب أن تكون، بحوزة شخص واحد فقط، وهنا قرر، أن يبدأ في تنفيذ خطته، التي أعدها مسبقا، فأخرج مسدسه، وأطلق عليهم، عدة أعيرة نارية متتالية، فأسقطهم صرعى في الحال، بعدها وضع المسدس في جيبه، وحمل الصندوق، وهرول بداخل السرداب، نحو باب الخروج.

اقترب من باب السرداب، ألقى بالصندوق إلى خارج السرداب، وما أن خط أول خطوة، نحو باب الخروج، حتى ظهر له ثعبانا،

أكبر من الثعبان الأول، وقف أمامه، وسد عليه باب السرداب، نظر إليه بتهكم، ومد يده في جيبه، وأخرج مسدسه، ليطلق عليه عيارا ناريا، وينتهي منه، لكنه اكتشف بأن خزانة مسدسه باتت خاوية، لقد سدد رصاصاتها كاملة، في قلوب ورؤوس زملائه منذ دقائق، حاول أن يضرب الثعبان بحجر، لكنه كان الأسرع، فانقض على رقبته، ودس السم فيها، وسامي يصرخ فلا مجيب، حتى سقط على الأرض.

سمع مسعود صوت صرخات المهندس، هرع نحوه، فوجده ممدا على الأرض، بعدما زهقت روحه، وبجواره الصندوق، أزاح مسعود جثة المهندس، إلى داخل السرداب، وألقى بالحجارة والركام في مدخله، حتى اختفى باب السرداب تماما.

كانت دهشة مسعود شديدة، وكانت سعادته أشد، وهو يحمل الصندوق، والأفكار تموج في عقله، كيف سيتصرف في هذا الصندوق؟ هل يفتحه، أم يدفنه في غرفته؟، لكنه قرر الهروب وبسرعة من القصر، خشية أن يلاحقه احد، ولكن إلى أين سيذهب؟

لم يرهق عقله بالتفكير، بالتأكيد عليه أن يهرول إلى بيت مراد سلام، شريكه الذي أرشده، إلى طريق الصندوق، ليفكرا سويا،

فـي كيفيـة التصـرف، فـي تلـك الثـروة، التـي هبطـت عليهمـا مـن السماء، لتعوضهمـا عـن الظلـم الـذي تعرضـا إليـه. لقـد قـدر الله، أن يعوضـه عـن ميـراث أبيـه، الـذي سـلب منـه، وأن يجمعـه مع شـربات، علـى أسـاس قـوي.

• • •

١٤٢

كانت الشمس قد أشرقت، وألقت بأشعتها الذهبية على الأرض، حينما وصل مسعود إلى بيت مراد سلام، اكتشف أن هالة قد ذهبت إلى الجريدة، ولكنه وجد السيد مراد سلام، فرحب به، وأدخله إلى غرفة مكتبه، ثم نادى على زوجته، التي ما أن رأت مسعود، حتى شعرت بالاشمئزاز، من تلك الطبقة الملتصقة بتراب الأرض، والتي لا تشعر بالفارق الكبير، بينها وبين الطبقة، التي تنحدر من السلالة الملكية.

شعر مسعود بالخجل، من نظرات تلك السيدة الأرستقراطية، التي تعكر مزاجها، منذ أن رأته، وزاد من تعكر مزاجها، طلب زوجها، أن تعد لمسعود طعام الإفطار، فازدادت نظرات غيظها، رمقت مسعود بملابسه الرثة، وحذائه المتسخ، الذي ترك آثارا على السجاد، فعنفته بشدة

ـ إيه القرف ده.. اخلع جزمتك.. قبل ما تدخل يا حيوان..

شعر مسعود بالحرج، فأبدى أسفه، لكن مراد سلام، لم يرضى أن يهان مسعود أمامه، فصرخ في وجهها، وطلب منها أن تهدأ، وتلتزم حدود اللياقة، وتسرع في إحضار الإفطار. فهرولت نحو المطبخ، أجلس مسعود أمامه، مكررا الاعتذار إليه، اخبره بأنها

سيدة طيبة، لكن أسلوبها جاف بعض الشيء، وضحك وهو يخبره، أنها من بقايا الأسرة العلوية، التي حكمت مصر، ردحا من الزمن، فرسم مسعود ابتسامة، محاولا تجاهل ما حدث

- ولا يهمك.. إحنا أخدنا على كده.. الإهانات بقت عادي عندنا.. إحنا ولاد الكلب الشعب.

غضب مراد سلام، من تلك العبارة، وربت على كتف مسعود، وأخبره بان الشعب هو السيد، وأن تلك الطبقة، التي تعلو فوق الرؤوس كصداع مزعج، سوف تسقط ذات يوم، في ذاكرة النسيان، فابتسم مسعود، واخبره أن تلك الطبقة، سوف تظل فوق رؤسهم إلى يوم يبعثون.

أنست تلك المشاحنة مسعود، ما جاء من أجله، لكنه حينما اطمأن، بأنه ليس هناك أحدا، في الغرفة غيرهما، أخرج الصندوق من الكيس، الذي وضعه فيه، حكى لمراد سلام، ما رآه بالتفصيل، حتى حصل على الصندوق، فسأله مراد سلام في حيرة

- طيب والرجالة اللي كانوا معاه راحوا فين؟

- كان في أيده مسدس.. والمسدس كان فاضي... يبقه أكيد قتلهم، وحاول يهرب بالصندوق.. لكن ربنا بعتله التعبان ده خلص عليه.. عشان نأخذ إحنا الصندوق

- طيب وجثته راحت فين؟..

- رمتها في السرداب.. وسديت فتحة السرداب بالحجارة والتراب

ـ برافو عليك يا مسعود.. أنت عملت عمل وطني.. اللصوص دول كانوا هيسرقوا المجوهرات، ويهربوها بره البلد، إحنا لازم نسلم الصندوق للحكومة... وعشان تطمئن نروح نسلمه سوا.

اتسعت عيون مسعود، واحتضن الصندوق المغلق، الذي لم يفكر في فتحه

ـ نسلمه للحكومة.. أنت بتقول إيه؟ هي الحكومة ناقصة صناديق.. الصندوق ده حقنا إحنا

فقال مراد سلام مستنكرا، كلام مسعود، التي ليس لها محل من القبول

ـ بلاش تقول كده يا مسعود.. بينا وبين الحرام ربنا يا بني.. ده حق الشعب

ضحك مسعود، واحتضن الصندوق أكثر، وجلس على أقرب كرسي

ـ وأنا حقي فين.. أنت متعرفش أنا عايش أزاي وفين وبأكل إيه.. وبعيش تحت رحمة مين..إحنا عايشين تحت خط الفقر.. حتى البنت اللي نفسي أتلم معاها تحت سقف واحد.. مش عارف أحققلها الحلم الصغير ده.. أنا ليا النص في الصندوق ومش هسيبه.. وأنت نصك أنت حر فيه.

شعر مراد سلام بخيبة أمل، الجميع يتصارع على مال الشعب، الكبار ينهبه بلا رحمة، لكي تمتلئ خزائنه، والصغار ينهبونه،

لكي يستطيعوا العيش، على أرض الملح في سلام، حاول مراد سلام أن يقنع مسعود، أن يسلما المجوهرات إلى الحكومة، على أمل أن يحصلا على مكافأة، وساعتها يتقاسمونها فيما بينهما، لكن مسعود رفض ذلك العرض، غير المغري على الإطلاق، وبدأ يقنع مراد سلام، بأحقيتهما في الصندوق، لقد جاءت تلك الثروة، في الوقت المناسب، لتحل تلك الكوارث التي يعيشون فيها، فكلاهما عانى من ظلم الكبار، وآن الأوان، أن يحصلا على بعض من حقوقهما. بينما كان النقاش على أشده، وكلا منهما يبرر وجهة نظره، حتى رن هاتف مرد سلام النقال، صمت مسعود، ومراد سلام يقبل المحادثة

- أيوه أنا مراد سلام والد الصحفية هالة.. مالها.. انتوا مين وعايزين إيه.. عايزين الصندوق..وشربات كمان...الو

تجمدت مفاصل مسعود، ووقف مذعورا، والدموع تترقرق من عيون مراد سلام، ألقى مسعود بالصندوق على الأرض، بينما سقط مراد سلام منهارا، على أقرب كرسي، يلعن تلك الورطة التي ألقى بابنته فيها، دنى منه مسعود، وسأله في قلق بعدما سمع اسم شربات

- مالها شربات... في إيه يا مراد بيه..

- الظاهر اللصوص هما اللي كانوا بيراقبونا.. عايزين الصندوق مقابل هالة وشربات.

انتهت أم هالة من إعداد طعام الإفطار، دخلت عليهم الغرفة، وهي تحمله في غضب، فرأت زوجها يجلس على الكرسي، في حالة من البكاء الشديد، وضعت الطعام على المائدة، وهرعت نحوه تهز رأسه

ـ مالك يا مراد.. فؤاد حصله حاجة.. انطق ماله فؤاد

أخبرها أن فؤاد بخير، ولكن اللصوص، قد خطفوا ابنتهم هالة، صرخت فيه، وتشبثت بملابسه، طلبت منه أن يخبرها، من هؤلاء اللصوص الذين اختطفوا ابنتها، وماذا يريدون منها، ومراد جامد كالصخر، شل الخبر تفكيره. يتأمل ذلك الصندوق الملعون، الملقى على الأرض في حزن. تركهما مسعود في حالة يرثى لها، ذلك السيد النبيل مراد سلام، صامتا كقبر، وتلك السيدة الأرستقراطية فريدة، تصرخ في فضاء الغرفة. هرول إلى خارج البيت، ليطمئن على شربات، ويعرف ما حدث بالتفصيل.

• • •

«٤٣»

هرع مسعود، إلى الجحر الذي تعيش فيه شربات، طرق الباب بشدة، حتى كاد أن يخلعه من مكانه، نادى عليها بأعلى صوته، فلم يجبه أحد. فجأة خرجت عليه إحدى الجيران، ومن خلفها حفنة من الأطفال، بدا عليهم التشرد بشدة، سألها عن شربات، فردت والحسرة تطل من ملامحها البائسة

جماعة بلطجية ضربوهم..وخطفوا شربات.... وأم شربات دلوقت في المستشفى..

ابتلع مسعود ريقه، تصبب رأسه عرقا، رغم الأجواء الربيعية، والنسمات العليلة، أسند جسده على الحائط المتهالك، ضرب الباب بقبضة يده، ثم ترك السيدة وهرع نحو المستشفى. وصل مسعود إلى المستشفي، فتش في جميع غرفها، حتى وجد خالته أم شربات، راقدة على أحد الآسرة، مربوطة الرأس والذراع، عيناها مفتوحتان تحملقان بهما في السقف، رسمت الدموع على خديها، مجرى دقيق، اقترب منها في وجل، هز جسدها الواهن، مسح على رأسها، وقبل يدها، سألها في ضعف وقلة حيلة، عن حبيبته شربات، سمعت صوته، فالتفتت نحوه بصعوبة، عادت إليها روحها، حينما رأت مسعود أمامها، هرعت الدموع من عينيها،

تشبثت بيديه، كادت أن تقبلها، حكت له ما حدث بالتفصيل قبل شروق الشمس بقليل، دق باب البيت بشدة، فتحت الباب في ذعر، فإذا بثلاثة من الرجال الأشداء، يقتحمون البيت، ضربوها على رأسها، وانتشروا في أرجاء البيت، يفتشون عن شربات، دخلوا عليها غرفتها، واقتادوها بالقوة إلى خارج البيت، حاولت أن تدافع عن ابنتها، لكن جسدها الضعيف، لم يسعفها، أخذوها في سيارة صغيرة، وانطلقوا بها إلى خارج الحارة.

ـ ورحمة أمك ترجعلي شربات يا مسعود..أنا مليش غيرها..عايزة أشوفها قبل ما أموت

قبل مسعود يدها ورأسها، وزرع دمعتين، على شعرها الأبيض المختلط بالأسود، وربت على كتفها، حاول أن يطمئنها، رغم أن الخوف يزلزل كيانه.

ـ ما تخافيش يا خالتي.. مش هرجع إلا وشربات في أيدي.

ظل بجوارها، حتى اطمئن عليها، أوصى عليها إحدى الممرضات. ثم عاد إلى بيت مراد سلام، فوجد أم هالة ما زالت تبكي، تصرخ في زوجها، وما أن رأت مسعود أمامها، حتى صبت في وجهه اللعنات..

ـ البيت خرب..من يوم ما دخلت علينا يا بوز النحس أنت.. أنا عايزه بنتي.. يا مراد

سحب مراد سلام، مسعود إلى غرفة مكتبه، وأغلق بابها في وجه زوجته، فنفخت في الهواء، وضربت الأرض بقدميها. كان يبدو

علـى مـراد سـلام، اليقظـة الشـديدة، لقـد اسـتطاع اسـتيعاب الموقـف، ودبـر كل شـيء، أجلـس مسـعود أمامـه، ثـم قـال فـي ضعـف مصطنـع ـ اللصـوص اتصلـوا.. وهيحـددوا ميعـاد ومـكان.. نسـلمهم الصنـدوق وناخـذ البنتيـن.. إيـه رأيـك

فـرح مسـعود، بعدمـا أطمئـن بـأن شـربات، علـى وشـك العـودة إلـى أحضانـه، فلـم يعـد يهمـه، الصنـدوق ومـا فيـه، لـم تعـد تهمـه الدنيـا ومـا فيهـا، الأهـم عنـده الآن، أن تعـود شـربات إلـى أحضانـه مـن جديـد.

ـ في داهية الصندوق باللي فيه.. شوف هتروح إمتى وأنا معاك

ـ هما شكلهم مستعجلين.. الليلة هيتصلوا ويحددوا المكان والزمان

ـ وأنا مش هتحرك من هنا إلا لما أعرف مكانهم.

ـ لا أنت لازم ترتاح شويه.. شكلك تعبان.. عشان نقدر نتصرف

هـز مسـعود رأسـه بالموافقـة، فقـاده مـراد سـلام، إلـى غرفـة ابنـه فـؤاد، غرفـة صغيـرة، بهـا مكتـب وسـرير ودولاب، أرقـده مـراد سـلام فـي السـرير، بعدمـا أعطـاه كوبـا، مـن الشـاي السـاخن، وأطفـأ مصبـاح الغرفـة، طلـب منـه، أن يشـرب الشـاي، ويرتـاح فـي السـرير حتـى المسـاء، فانصـاع مسـعود إليـه، شـرب كـوب الشـاي، وألقـى برأسـه علـى الوسـادة، وراح فـي نـوم عميـق..

• • •

٤٤

فـي المسـاء، كان الخديـوي عتريـس، يجلـس فـي مدخـل القصـر، وحولـه رجالـه، ويجلس بجـواره رجـلا، تبدو عليـه الملامـح الأوربية، بوجهـه الأبيـض المشـبع بحمـرة، وقبعتـه البيضـاء، تأمـل القصـر مـن الداخـل، ويبـدو عليـه الإعجـاب، الملفـت للنظـر بالقصـر، مـع الإنـكار الشـديد، لمـا آل إليـه حالـه، قالـت لعتريـس فـي اسـتنكار

لمن هذا القصر يا مستر عتريس؟

ـ ده قصـر الخديـوي توفيـق.. القصـر ده عمـره أكتـر مـن ١٥٠ سـنة يـا خواجـة مـارك

ـ لو كان هذا القصر لدينا في انجلترا لحولناه إلى مزار سياحي..

قال عتريس في لامبالاة

ـ إحنـا عندنـا قصـور كتيـر.. الحكومـة هتـأكل النـاس ولا هترمـم قصـور.. المهـم دلوقـت.. أنـا نصيبـي كام مـن الصنـدوق ده؟

قال مستر مارك في حزم، محذرا عتريس من تغيير الاتفاق

ـ كمـا اتفقنـا يـا مسـتر عتريـس لـك نصـف مليـون دولار.. وليـس لـك أي حـق فـي الصنـدوق

ـ ماشي وأنا راضي.. ومش هرجع في كلامي..

مـر الوقـت ببـطء، وبـدا علـى مسـتر مـارك القلـق الشـديد، نظـر فـي

ساعته، وسأل عتريس عن سبب التأخير، حاول عتريس أن يهدئ من روعه، بأن هذا هو حال الوقت في مصر، ليس له قيمة، عاد الخواجة ليتجول بعيونه بداخل القصر، تلك الجدران العالية، والسقوف المزينة بالورود، والأرضية المغطاة بخشب الباركيه، والنوافذ العتيقة، التي ترجع إلى قرن من الزمن، وهذه القذارة والإهمال، الذي لحق بالقصر الملكي، وقال في حزن

ـ يبدو أن هذا القصر قد تعرض للنهب أثناء ثورة يناير

لم يهتم عتريس، بالرد على سؤاله، لكن الإجابة، جاءت على لسان السيد مراد سلام، الذي دلف فجأة إلى بهو القصر، وخلفه مسعود، وقال موجها كلامه للخواجة

ـ القصر ده أتعرض للنهب من ثورة يوليو يا خواجة..

التفتا الخواجة وعتريس، نحو مراد سلام، الذي وقف أمامهما، ينظر إليهما بتحد واضح، وقفا عتريس والخواجة يتطلعان إلى الصندوق، الذي يحمله مسعود بين أحضانه، فأشار عتريس إلى مسعود

ـ حمد الله على سلامة النص مليون دولار.. هات الصندوق يا مسعود يا حبيبي

أخذ مراد سلام الصندوق من مسعود، وقال في هدوء أعصاب، منقطع النظير

ـ فين هالة وشربات يا عتريس..؟

أشار عتريس إلى نوال، الواقفة في شرفة الطابق العلوي، تترقب الموقف عن كثب، سعيدة لاقتراب نجاح الصفقة، وحصول عتريس على مبلغ كبير، سوف ينقلهما معا إلى النعيم.

ـ هاتي البنات يا نونو

دخلت نوال غرفة عتريس، أحضرت هالة وشربات، ونزلت بهما إلى بهو القصر، ارتمت شربات في أحضان مسعود، وارتمت هالة في أحضان أبيها، ألقى مراد سلام بالصندوق إلى الخديوي، فالتقطته في سعادة، وأعطاه إلى الخواجة، الذي حاول أن يفتحه، فوجده محكم الغلق، بقفل كبير عتيق، تراكم عليه الصدأ، طلب عتريس من أحد رجاله، إحضار شاكوش، فأحضره بسرعة، وأعطاه إلى الخواجة، الذي ظل يضرب على القفل بقوة، حتى كسره، وانفتح الصندوق، تطلع الجميع بعيونهم إلى داخل الصندوق، والخواجة يفتحه، وكانت المفاجأة، أن الصندوق لا يحتوي، إلا على رسالة ورقية عتيقة، فتحها الخواجة، وناولها إلى عتريس، الذي قرأها بصوت عال

حبيبتي ليليان..

بمجرد أن انتهي من كتابة هذه الرسالة، أكون قد حصلت، على المجوهرات التي بداخل الصندوق، وسبقتك إلى حيفا، لقد كانت

فترة مرضي بالحمى، قاسية جدا، وبمجرد أن شعرت بتحسن، كان الانجليز قد دخلوا مصر، وقرر الخديوي توفيق، العودة إلى القاهرة، وباتت فرص انكشاف سرقتنا كبيرة، لذلك لن أتمكن، من إرسال تلك الرسالة إليك، لكنني سأتركها في الصندوق، وحينما تعودين إلى قصر حلوان، وتفتحين الصندوق، ستجدين رسالتي تلك، حينها يجب أن تسافرين سريعا إلى حيفا، حيث سنلتقي ونعيش حياتنا هناك في سعادة.

إلى اللقاء حيث سنلتقي

زوجك الحبيب

إلياس

ذهل الجميع من هول المفاجأة، شعر عتريس بمرارة في حلقه، بعد أن فقد مبلغ الصفقة، التي كان يمني نفسه بها، ظهر الغضب على ملامحه، فلعن ليليان، وإلياس الذي خدع الجميع، وهرب بالمجوهرات، وأضاع عليه فرصة، الحصول على نصف مليون دولار، شعر الخواجة بخيبة أمل، بعدما فهم فحوى الرسالة، ولكنه حينما رأى الابتسامة، تعلو وجه مراد سلام، وهو يحتضن ابنته، اقترب منه وصافحه، وابتسم إليه في مكر، همس في أذنه، بعدة كلمات باللغة الانجليزية، أسعدت مراد سلام كثيرا، فأخرج من

جيبه كارت صغير، وأعطاه إلى الخواجة مارك.

فجأة، سمعت أصوات عربات الشرطة، تقتحم القصر، ونزل منها عشرات العساكر، حاصرت الخديوي عتريس، فشعر بالذعر والدهشة، وقف مذهولا من كم المفاجآت، التي حدثت الليلة

- إيه اليوم الأسود ده..هو في إيه؟

أمر الضابط العساكر، بتفتيش غرف القصر بعناية، تم تفتيش غرفة عتريس، فعثروا على قطع سلاح غير مرخصة، وكميات كبيرة من المخدرات، ومخازن عامرة ببضائع مسروقة، فأمر ضابط الشرطة العساكر، بالقبض على عتريس ورجاله، بتهمة خطف هالة وشربات، والقبض على عدد كبير من اللصوص، والهاربين من العدالة، وتم القبض على عدة فتيات، بتهمة ممارسة الدعارة، وبذلك تم تطهير القصر. ركب الخديوي عتريس عربة الشرطة، ونظر إلى مسعود بغضب، وقال وهو يتوعده

- ماشي يا ابن روايح.. ورحمة أمي ما حسيبك.

• • •

٤٥

جلس مسعود، أمام مائدة الطعام في بيت خالته، وبجواره شربات، فتحت جريدة المستقبل، تتأمل صورة مسعود، التي تعلو التحقيق الصحفي، فخورة بحبيبها مسعود، الذي تتصدر صورته الجريدة

ـ صورتك منورة الجورنال يا مسعود..

ـ طيب ابقي هاتي الجورنال ده.. أتغطى بيه وأنا نايم تحت الكوبري يا حبيبتي.. كان يوم أسود يوم ما عرفت هالة وأبوها والصندوق الزفت ده

ـ ليه بس يا مسعود؟

ـ الحكومة قفلت القصر عشان ترممه وبقيت في الشارع.. والصندوق طلع فاضي..وأخواتي أخذوا ميراثي.. وتحويشة العمر أخذتها عملية أمك.. يعني بقينا على الحديدة يا روحي

دخلت أم شربات، وضعت الطعام أمام مسعود، نظرت إليه بغضب، وقالت

ـ.. اعتبرها مهر شربات.. ولا أنت مش ناوي تخطبها يا ابن أختي

ثم ضحكت، عادت إلى المطبخ، لإحضار باقي الطعام، وتركت مسعود على ناره، دنى من شربات، والدموع تحاول أن تهرع من عيونه، لقد فشل في تحقيق حلمها الوحيد، فمسحت على شعره

بيدها، فاقترب من شفتيها، وقبلها قبلة طويلة، وقال في حنو بالغ
ـ تجوزيني يا شربات..
شعرت شربات أن روحها تصعد، وأن نبضات قلبها تتصاعد، مدت ذراعيها وأحتضنه، لكن قطع عليهما تلك اللحظة الرومانسية، ضربات قوية على الباب، نادت أم شربات على سكر
ـ افتحي الباب يا سكر
خرجت سكر من إحدى الغرف، وخلفها أخوتها، أجلستهم حول مائدة الطعام، وهرعت نحو الباب وفتحته، فوجدت أمين شرطة، مد رأسه الكبيرة، بداخل البيت، فرأى مسعود، جالسا بجوار شربات أمام الطعام، فأشار إليه وقال أمراً
ـ قوم يا مسعود حضرة الظابط عايزك..
تجمدت مفاصل شربات، وأمين الشرطة يأمر مسعود بالقيام، فبادره مسعود في غضب
ـ وربنا حتجوزها.. أنت مش سامعني بقولها تجوزيني يا شربات..
أشاح أمين الشرطة، بيديه نحو مسعود، وقال في سخرية:
ـ يا عم وأنا مالي.. حضرة الظابط قالي هات مسعود بسرعة

نظرت شربات إلى مسعود، وقالت في خوف وقلق
ـ عملت إيه يا مسعود؟..
ضحك مسعود وسحبها من ذراعيها، وأخبرها بأنه يبدو أن أمها،

قد أبلغت الشرطة عنهما، بتهمة فعل فاضح في بيت أم شربات، طلبت منه أن تأتي معه، فأمسك بيدها، وخرجا معا إلى قسم الشرطة .

• • •

٤٦

كان مراد سلام يجلس خلف مكتبه، وحوله وزوجته وابنته هالة، أفرغ محتويات الصندوق على مكتبه، في سعادة بالغة، فبرقت أعينهما من روعة المجوهرات، التي لا تقدر بثمن، سحبت زوجته عقد الأميرة أمينة، ولفته حول رقبتها، وأخذت هالة السوار، ولفته حول معصمها، ضحك مراد سلام، ونفخ دخان غليونه في الهواء، وأشار إلى المجوهرات

ـ دي مجوهرات الأميرة أمينة.. التي لا تقدر بثمن..

قالت زوجته بإعجاب، وذهول وعدم تصديق، من امتلاكها مجوهرات الأميرة أمينة

ـ عمري ما كنت أتخيل.. إني ألف عقد الأميرة أمينة حوالين رقبتي..أنت ما طلعتش سهل

اقتربت هالة من والدها، وأمسكت بيده، وجذبته نحوها، وأجلسته بجوارها

ـ احكي لي بقه يا بابا.. عملت ده كله أمتا وازاي؟

ـ أنا كنت ناوي أسلم المجوهرات للحكومة، لكن لقيت مسعود مصمم يقسم المجوهرات ويأخذ نصيبه، وكمان اللصوص خطفوكي أنتي وشربات وطلبوا المجوهرات..مقابل أن يطلقوا

سراحكم، وكان لازم أبلغ البوليس.. عشان خفت اللصوص يغدروا بينا.. قلت كده كده المجوهرات ضيعه.. كان عندي صندوق قديم..عليه قفل قديم.. كنت شاريه من بياع خردة.. فكرت أنصص المجوهرات وأحطها في الصندوق.. وأقفل عليها..عشان محدش يشك.. إننا فتحناه وأخذنا منه حاجة.. لكن صعب عليا المجوهرات تتسرق.. وتتهرب بره البلد.. فعملت فكرة الرسالة دي

سحبت هالة المذكرات، قلبت فيها، سالت والدها

- وأزاي عرفت كل التفاصيل دي.. ده أنت مؤلف يا بابا

- بمجرد دخول الانجليز مصر.. بدأ الخديوي توفيق يأخذ أسرته.. ويرجع قصر عابدين.. في الوقت ده كان إلياس زوج ليليان.. عنده حمى وراقد في المستشفى.. راحت ليليان عشان تطمئن عليه.. قبل ما تسافر.. فاكتشفت إنه خرج من المستشفى من فترة.. فظنت إنه رجع لحيفا زى ما كان بيهددها دايما.. وهنا جاتلي الفكرة.. إن إلياس يكون رجع.. أخذ المجوهرات وهرب على حيفا.. وإنها لما ترجع تدور على المجوهرات.. مش هتلاقيها..عشان كده.. تركلها رسالة في الصندوق.. بعدما أخد اللي جواه..عشان يعرفها إنه سبقها على حيفا

ضربت زوجته بيدها على رأسها، احتضنت العقد، الذي يلف رقبتها وقالت

ـ يخرب بيت دماغك.. بس أوع تقولي..أن المجوهرات دي هتسلمها للحكومة

نظرت هالة بصرامة، إلى أمها المتشبثة بالصندوق

ـ طبعا هنرجعها للحكومة يا ماما.. ولا إيه يا بابا

صمت مراد سلام قليلا، دار حولهم، تأمل صورة ابنه فؤاد، المعلقة على الحائط، والظروف التي اضطرته، أن يسافر للعمل في الخليج، وذلك المعاش الضئيل، الذي لا يكف، بأي حال من الأحوال، مصاريف البيت والعلاج، وابنته هالة التي حرمت من حبيبها أكرم، والبيت الذي تصدع، وينتظر الفرصة، لكي ينهار فوق رؤوسهم، وطلبات زوجته التي لا تنتهي، ورغبتها في الهجرة إلى أستراليا. جلس على الكرسي يفكر، حاول أن يطرد عن رأسه، فكرة سرقة المجوهرات، كيف ينهي حياته النقية بسرقة، أصطدم بالوضع الراهن، الذي تعاني منه أسرته، فأصبح بين خيارين كلاهما مر.

فجأة دق جرس الباب، لملم مراد سلام المجوهرات في الصندوق، أشار إلى هالة، أن تفتح الباب، هرعت إلى الباب وفتحته، فوجدت أمامها الخواجة مارك، الذي كان في القصر، بملامحه الأوربية وقبعته البيضاء، رفع قبعته، وانحنى وألقى تحية المساء

ـ هالو.. مستر مراد موجود؟

أشارت إليه أن يتفضل، دخل يتأمل تلك الشقة القديمة، التي يرجع

طرازها، إلى أربعينيات القرن الماضي، رغم تلك الشقوق، التي ترسم لوحات سريالية، على جدرانها، لكن كل ركن فيها، يعود به إلى الماضي، إلى تلك الفترة، التي عاشها مع أسرته في مصر، كآلاف الأجانب، الذين عاشوا فيها، وصارت لهم ممتلكات، ولكنهم تركوها مع حملات التأميم، التي مارستها حكومة ثورة يوليو، ضد الشركات والمصانع الأجنبية في مصر. كانت تلك الطبقة المتوسطة، هي رمانة الميزان، في المجتمع المصري، لكنها سقطت وذابت في الطبقة الدنيا، وبات المجتمع المصري بين طبقين عليا ودنيا.

نادت هالة على أبيها، فخرج من غرفة مكتبه، ورحب بمستر مارك، وكأنه كان في انتظاره، أمسك بيده، وأدخله إلى غرفة المكتب، وأغلق الباب عليهما.

مرت ساعة، وهما بداخل الغرفة، لم يتخلله، سوى دخول هالة بالقهوة، ثم خروجها بسرعة، جلست بجوار أمها، فسألتها عن ما يحدث بالداخل، فأخبرتها أنها بمجرد أن دخلت بالقهوة، حتى سكت الاثنين، حتى خرجت وأغلقت الباب.

جلسا يفكران، فيما يدور خلف ذلك الباب المغلق، فجأة فتح باب المكتب، خرج والدها ومعه الخواجة مارك، يضحكان في سعادة، لاحظت هالة وأمها، أن الخواجة يحمل صندوق المجوهرات،

وبمجرد أن أوصله والدها، إلى باب الشقة، وأغلق الباب خلفه، حتى أشار إلى زوجته وابنته هالة، أن يتبعاه إلى غرفة مكتبه، فالفضول كاد أن يقتلهما، دخلا خلفه بسرعة، والتفا حوله، جلس على مقعده، أشعل الغليون في غرور ملحوظ، فبادرته هالة

ـ إيه الحكاية يا بابا.. ماله الخواجة ده كان عايز إيه؟

تشبثت به زوجته، وسألته في ذعر

ـ الخواجة ده أخد الصندوق ليه يا مراد؟

قام مراد سلام من فوق الكرسي القابع بجوار المكتب، ثم جلس على المكتب، والابتسامة لا تفارق وجهه، والسعادة تحتل كيانه، قال وهو يفتح ذراعيه

ـ الظاهر إن الحظ أخيرا ابتسم..

ـ خير يا مراد.. فرحنا معك.. فين صندوق المجوهرات!

ـ أنا بعت المجوهرات

ساد الصمت لدقائق.. لكن هالة اقتربت من والدها، في ذهول

ـ ومين ده اللي اشتراها منك يا بابا؟

ـ الخواجة مارك.. أكبر تاجر (أنتيكات) في أوربا.. كان جاي مخصوص..عشان يشتري مجوهرات الأسرة الملكية. الوحيد اللي فهم اللعبة اللي عملتها، اتصل بيا واتفقنا على كل حاجة، واليوم جابلي ده..

أخرج من جيب سترته، أربعة جوازات وتأشيرات سفر إلى

أستراليا، تفحصت هالة الأوراق، جواز سفر باسم والدها وأمها، وأخيها فؤاد وجواز سفر باسمها، كما قام بفتح حساب باسمه، في أحد بنوك أستراليا، وتم تحويل عدة ملايين من الدولارات، والسفر خلال أيام، وبعدها سيرسل إلى فؤاد، ليلحق بهم في أستراليا.

صرخ الجميع في فرح وسعادة، وكأن طاقة القدر، قد فتحت لهم، غنوا ورقصوا، فرحت هالة لقرب لقاء حبيبها أكرم، ورقصت الأم أنها ستعيش مع أختها في استراليا، وسيتخلص ابنها فؤاد من مشاكله

ـ أخيرا حسافر أستراليا عند أختي.. وأعيش مع فؤاد حبيبي.. أخيرا خلصنا من الفقر..

• • •

٤٧

اصطحب أمين الشرطة، مسعود وشربات إلى قسم الشرطة، أدخلهما غرفة الضابط، فرأى مسعود الشيخ حسين، وأخيه الحاج علي، يقفان أمامه في سعادة، فهرع إلى الشيخ حسين، احتضنه وقبل يده ورأسه. شعر بان روحه التائهة، عادت إلى جسده، تذكر أيام العبادة، والقرب من الله، تذكر المسبحة، التي أخذها منه، عند وداعه في الصعيد، تحسس جيبه في خجل، فوجد السبحة مستقرة في مكانها، لم يمسها منذ أن غادر، وكالة الحاج رضوان، وعاد إلي تلك الأرض التي امتلأت ذنوبا

ـ إيه المفاجأة الكبيرة دي.. وحشتني يا شيخ حسين

ـ أنت كمون اتوحشتني.. كيفك يا ولدي.. سألت عليك الحاج رضوان..قالي انك رجعت أهني

اعتذر إليه مسعود، انه قد أخلف وعده، وعاد إلى تلك الأرض، وأخبره أن سعادته، بدأت حينما رأى وجهه من جديد، وأشار إلى شربات، أن تقبل يد الشيخ حسين، فانكبت على يده وقبلتها، فأخبرها أن مسعود يعشقها، فطأطأت رأسها من الخجل، لم يشعر مسعود، بوجود أخيه الحاج علي، كل ما شغله هو رؤية الشيخ حسين، لكن الشيخ أشار إليه في عتاب

ـ مش راح تسلم على أخوك الحاج علي يا مسعود

نظـر مسـعود إلـى أخيـه، فـي تـردد واضـح، مـرت دقائـق مـن الصمـت، فتـح الحـاج علـي ذراعيـه، واسـتقبل حضـن أخيـه مسـعود. اطمـأن الضابـط، بـأن الأجـواء مسـتقرة، فتـرك لهـم الغرفـة وخـرج، اقتـرب الشـيخ حسـين مـن مسـعود، ومسـح علـى رأسـه، وأشـار إلـى الحـاج علـي

ـ الحـاج علـي.. جـاي عشـان يأخـذك.. تسـتلم نصيبـك مـن ورث أبوك.. الله يرحمه

لـم يسـتوعب مسـعود، مـا قالـه الشـيخ حسـين، شـعر أنـه يحلـم، فمنـذ زمـن طويـل، والدنيـا لـم تبتسـم لـه، حتـى ظـن أنهـا نسـيته للأبـد، اعتقد أن مشـهد النهايـة، كان هنـاك فـي الصعيـد، وأن الحلـم قـد ذهـب، ولـن يعـود، لكنـه فـرح بالخبـر، وتأكـد أخيـرا بـأن الحلـم سـيتحقق، أطـارت الفرحـة عقـل شـربات، فأطلقـت زغـرودة قويـة، وتشـبثت بـذراع مسـعود، قـال مسـعود والفرحـة تجتـاح أوصالـه

ـ والله يـا حـاج علـي.. أنـا مـش عايـز حاجـة مـن الدنيـا.. بـس كان نفسـي أشـوف أخواتـي.. وأقـول للدنيـا أن ليـا عيلـة وأخـوات يرفعـوا الـرأس.. عشـان لمـا أتجـوز شـربات.. وأخلـف وابنـي يكبـر، أقولـه أن لـه فـي الصعيـد عيلـة كبيـرة.. وانـي مـش مقطـوع مـن شـجرة

اقتـرب منـه الحـاج علـي، ربـت علـى كتفـه فـي عطـف، فشـعر مسـعود، بحنـان الأب، الـذي تركـه منـذ سـنوات طويلـة، علـى رصيف الحرمـان، يعانـي الفقـر والتشـرد..

ـ مـا تقولـش أكديـه يـا خـوي.. ميـن قـال انـك مقطـوع مـن سـجرة.. إحنـا عيلـة كبيـرة قـوى وأنـت ابنهـا... ولازم تيجـي معانـا.. تعيـش فـي الصعيـد جنـب أرضـك وأهلـك

دنـى مسـعود مـن شـربات فـي سـعادة، وسـألها وهـو يثبـت عيونـه فـي عيو نها

ـ إيه رأيك يا شربات.. تعيشي معايا في الصعيد؟

ـ.. طيب وأمي يا مسعود.. مقدرش أسيبها وحدها..

ـ أمك وسكر وأخواتها.. كلنا هنسافر سوا..

ـ... هناخد سكر معانا....

ـ طبعا يا شربات أنا مقدرش أعيش من غير سكر..

• • •

٤٨

على رصيف قطار الصعيد، وقف مسعود، وحوله شربات وأمها وسكر وأخوتها، في سعادة بالغة، يرتدون ملابس جديدة، حتى يكاد من يراهم، أن لا يعرفهم، ينتظرون القطار المكيف، الذي سينقلهم إلى الصعيد، الأجواء توحي بالفرحة، غير لمحة الحزن، التي تطل من عيون إخوة سكر، احتضنتهم سكر في خوف، وأختها الصغرى تبكي، تسأل عن أمها، ربت سكر على شعرها الناعم، في محاولة لإسكاتها، طمأنتها بأن مسعود، قد ترك عنوانه في الصعيد، مع جيران أم شربات، وحينما تعود أمهم، ستأتي إليهم على الفور، دنى منها مسعود واحتضنها، وأخبرها بأنه سيعود بعد فترة، ليفتش عن أمهم، وسيحضرها إليهم، رغم شعوره، بأنها قد هربت بلا عودة، ستكرر نفس تجربة نوال، ستخجل من أن تعود بخيبتها، التي سيعيرها بها الجميع، اندهش كيف تترك أم بناتها، وتهرب خلف شهوتها، حتما ستشعر بالندم، ولكن بعد فوات الأوان، لكن مسعود، قرر الحفاظ على سكر وأخوتها.

سكر تلك الطفلة، التي ألقيت في ذلك الوسط الملوث، لكنها استطاعت الحفاظ على شخصيتها، بل حاولت، أن تؤثر فيمن حولها.

عادت الابتسامة إلى وجه مسعود، بعدما رأى السعادة، في عيون خالته، التي تحولت كراهيتها إلى حب، صارت أمه، التي تركته منذ صغره.

كان مؤشر ساعة المحطة، يشير إلى الرابعة عصرا، فظهر القطار من بعيد، فأشار إليهم مسعود، بأن يستعدوا، لركوب القطار، وفجأة التفت الجميع، نحو آخر الرصيف، على صوت أخت سكر، تصرخ فرحة

أمي.. أمي رجعت يا سكر

تركت أيد سكر، وأسرعت نحو أمها، التي ظهرت من بعيد، هزيلة وضعيفة، عيونها شاردة حزينة بملابسها السوداء، وملامح الحزن تطل من وجهها، هرول نحوها باقي بناتها، لكن سكر ظلت في مكانها، لم تتحرك قيد أنملة، رمقت أمها من بعيد، رغم أن الحنين إليها، كاد يحرق قلبها، إلا أنها ما زالت غاضبة، من تلك الأم التي هربت، وتركتهم على رصيف الوحدة.

كان القطار قد اقترب، وأم سكر تبكي، كما لم تبكي من قبل، احتضنت بناتها، واقتربت من سكر، فتحت ذراعيها، لاستقبال ابنتها الكبرى، اعتذرت إليها، ما كان ينبغي أن تترك صغارها، وتهرول خلف شهوتها، لقد خدعها عباس، أقنعها بالهروب، وبمجرد أن أطاعته،

بـاع التوكتـوك، وسـرق ثمنـه، أخذهـا إلـى أحـد بيـوت الدعـارة، لتسـقط فـي الوحـل، خدعهـا بأنهـا خـلال فتـرة وجيـزة، سـتتمكن مـن شـراء شـقة، لتجمـع بناتهـا تحـت سـقفها، لكنـه فـي النهايـة هـرب، بعدمـا أخـذ، كل مـا اسـتطاعت جمعـه، شـعرت بالعـار يكبـل جسـدها، الـذي باعتـه مـن أجـل لا شـيء، فقـررت أن تعـود إلـى بناتهـا، بعدمـا عرفـت، بـان عبـاس قـد قتـل، أثنـاء مطـاردة مـع الشـرطة، وتخلصـت مـن شـره إلـى الأبـد.

دنـى منهـا مسـعود، ربـت علـى رأسـها، طلـب منهـا أن تأتـي معهـم إلـى الصعيـد، لتربـي بناتهـا، بعيـدا عـن تلـك التربـة الفاسـدة، التـي أضاعـت الجميـع، لابـد أن يحافظـوا علـى سـكر وإخوتهـا مـن الضياع، لابـد أن يرحلـوا بعيـدا، عـن قصـر الأشـباح.

وقـف القطـار علـى رصيـف المحطـة، فتـح مسـعود البـاب، وركبـوا جميعـا، فـي القطـار المكيـف، حيـث الهدوء، والهـواء النقـي، والإضاءة القويـة، جلـس كل منهـم علـى كرسـي بمفـرده، وانطلـق بهـم القطـار، نحـو المسـتقبل المشـرق.

• • •

تم بحمد الله

عن الدار ومشروع النشر الحر

دار لوتس للنشر الحر هي أول دار نشر حرة يملكها كل كاتب، تعتمد مبدأ النشر الحر من خلال مشروع طموح يهدف إلى تخطي عقبات النشر ومساعدة الكاتب للنشر بطريقة تمنحه الحرية الكاملة وكل الحقوق والصلاحيات للتعامل مع كتابه دون استغلاله مادياً أو معنوياً، ودون احتكار لمجهوده الفكري في عملية تجارية.

هي مشروع خدمي وليس تجاري، تدعم الكاتب الموهوب وتسانده، تحاول الارتقاء بمستوى الأدب وتهدف إلى احترام الكاتب والقارئ من خلال نشر كل ما هو جيد دون الإساءة لشخص، أو أشخاص، أو مؤسسات، أو أفكار، أو عقائد، أو ديانات، أو أنظمة سياسية.

دار لوتس للنشر الحر

مصرية مغربية، تأسست في مايو 2017

للتواصل مع الدار والمشروع

هاتف / واتسآب

+2 01091985809 +2 02// 37390893

الموقع الإلكتروني

www.lotusfreepub.com

البريد الإلكتروني

Lotusfreepub@gmail.com

صفحة فيسبوك

FB/lotusfreepub

إصدارات المشروع

قلم عطر
وعادت ريما
مثل ليلة حب
وكأني أحبك
عالم قراطيس قراطيس
أوتار
دماء على ثوب أبيض
أموات فوق الأرض
بقلم رصاص
حريق على الجسر
القدرات السحرية
العالم لن ينتظرك
عندما ينتحب الياسمين
مرايا
البوهيمي
أيها الشباب لا تفقدوا الأمل
خريف مريم
حلم صريع
مُتيم
يوميات رجل محسود
هدوء ما قبل الانفجار
الموؤودة
أنين المساجد
صوت السماء
طبق كشري
أحببتك بعين قلبي
ما لا تعرفه عن الهجرة
الأيام الأخيرة
موانئ الرغبة
١٠٣
زمن الحنين
أوراق على دفتر الحنين
أحببتُ شبحاً
حكايات من التاريخ
كلمات ربي (ج١)
وشم على كتف الحياة
كيتو ياكيفو
يتيمة بأبوين
مائة عام على كوكب الأرض
نبوءة عاشق
رصيف نمرة ٢
قمر الدم
حنين الحنين

نساء وقيود
الآهات المكبوتة
عن الذي استدان ليشتري الشقاء
كتبتُ أحبك
فلاكا
الآدم وهي
أحلام فجر
مفاهيم إدارية لثالث ألفية
عاشق الضي
أنامل قصصية
مملكة روح
ماهر وسماهر وبئر النسيان
الضال
خليج بلا وافدين
في ليلة شتا
الشيطانة وعصا الجحيم
أنين وردة
لا تتعجلي الرحيل
بدون
من الأكاديمية إلى الفيلا
بردية رع (ذهاب وعودة)
كاتب ونساء وعبث
جيهينا
مذكرات خادمة من مونار
بعيداً عن العالم
قمر الدم (العودة)
سنمت الغربة
هكذا ضعنا
حلم
شيء من قلبي
قطوف وحروف
عائدة من الموت
شياطين السموم
حوار في الأفكار
وأد الزهور
أغاني البادية
الفراشة البيضاء
مدينة حرف
عذرية ما قبل الواحدة صباحا
حواديت مدينة الرحاب
الضحية
غيمات حبر وحب

كهف الجحيم
الحبيب المستحيل
تنمية التفكير الابتكاري للطفل
المنهج الإصلاحي
نفيش
ورد وشظايا
ولوج
الفن مين يعرفه
كريتوس
عهد
نبض حرف لا يخون
عبد اللاه
ساكني الكهوف
أخبرت البحر عنك
أحرفي تتراقص
لا تحزني
حلم عاشق
إحساس درويش
أقلام حائرة
خشوع بمحراب الحب
قمر الدم (رحيل الآلهة)
أرض الفيروز
عبرات ضاحكة
أنا يحيى
نظم المعلومات المحاسبية
حكاياتي المحروسة
حروف من قلبي
على الأعراف
زواج افتراضي
رجماً بالغيب
ألمانتا
خواطر مع الريح
شمعة وقلم أحمر
أسلوب العدول في القرآن الكريم
الفستان الأزرق
سيجار ولص ومأذنة
الحب المفقود
القيامة الوردية
كلمات متقاطعة بالشمع الأحمر
لماذا رحلت؟
جدال
التقارير المالية
موسم التوت

عبث
سلسلة المحاسب المتميز - ج١
هل ستغفر لي
سفاح المدينة
ناروبري
حبيبة أمها
التيسير في علم التأسيس
همسات ونسمات
الملاك الأسود
ملكوت السلطانة
أنات عاشق
ساعة من الزمن
زمان غادرنا
رقة النسائم
سبعة أحلام
في انتظار المد
نداء القلوب
درب الحكايات
ضجيج البحر
من تربة الورد خلقت
شهوات العقل
قطرات منثورة
أكروفوبيا
خدر مسلوب
دروب ملتوية
سوط الذكريات
الأخيذة
المأدبة
سيناء أرض العبور
الذكاءات المتعددة
دكتاتورية الحب
الفراشات لا تسكن القبور
تذكرة سفر
وخشعت قلوبهم
وطن الجومانجي
نموذج بايبي البنائي
المدينة الهادئة
السفينة
رشفة عشق
المسكالين
حرف تايه
حروف نابضة
الراقدون فوق التراب
أيقونة حروف عربية
ولاد الشيخ
فضفضة
كالبحر يتنفس موجا

بائعة اللبن
مركب شراع
غشاء حضارة
عظماء في الظل
الوصايا
معك دائما
نون وياء
اليمني
عندما يفوح الياسمين
عنوان مجهول
ترانيم
من بعد غياب
الرحيل إلى الداخل
ليالي باريس الحزينة
هكذا تكلم أبي
النحو الميسر
قيد الماس
أرض دي بلو
طرقتْ باب هواكِ
لحظة داخل إنسان
الذين أخفوا الشمس
أقلام نابضة
حكايا منتصف الليل
برواز على جدار القلب
كبير العيلة
وصمة عار
خربشات كاتب مجنون
اغتصاب أعشاب البحر
في ظل الحبر - ج١
أصعب فراق
للحب أكتب (أحمد وأحلام)
للحب أكتب (نادر ونورهان)
للحب أكتب (فارس ونادين)
اعرف دينك (ج١)
علماء صاروا شهداء
ضفاف
تأشيرة حياة
مجانين لا يدخلون الجنة
وجوه عابرة
امرأة خرافية
فيلم كرتون
أحوال منطقة أزواغ
محاولات
أربعون عام من الفقر
حطام زاحف
فوق السحاب
كلمات الحياة

إعصار الدم
العشق المنتظر
احترف فن كتابة الرواية
بذور الدم
حديث إلى النفس
موشور اللا متناهية
قصائد على خد الورد
عازف على ضفاف الشوق
وإني أشتهي وصلا
وانفرطت حبات السحر
هذا ما حدث بالفعل
انتبه إلى يمينك لعله يسار
ماذا علمتني الأيام
قهوة سادة
ثم أشرقت الشمس
دين السياسة
عيونك دربي
في جحر الأرانب
النارية
في الحافلة
نساء على ضفاف الحلم
تغريدة الروح والدم
ديوان الحب والحكمة
خفقات قلب
زهرة الصحراء
في ظل الحبر ٢
على ضفاف الذاكرة
محسن المصدوق
إسراء - أصفار العهد القديم
وعلينا السلام
انتقام الشر
الأحلام الوردية
أنت الحياة ودونك الموت
رسايل بحيص
ميراث الماضي
بداية حياة
سلة التفاح
فضة
قانون الحب
على الهامش
بين الجدران
سرطانية
العملاء
حنايا الروح
غربة حرف
غدا يوم جديد
أروقة الحنين

إحساس محمود
أنين سديم
الأتينيو
طلسم عشق
على شرف المحبرة
رباعيات
معزوفة حرف
في ظل الحبر ٣
أقول الأوهام
حديث الروح والقلب
أرض الأحلام
غابة التعاويذ السبعة - ملوك وتيجان
داون ٢١
فين عصايتك
من برلين إلى مارلين
حبيبتي أميرة البحار
رسائل أحرقتها العواصف
أفكار للتأمل
الجني العجوز
أحببت قمرا
غابة التعاويذ السبعة - أرض الأجداد
قلوب من الجنوب
بداخلي غصن زيتون
كلام ابن عم حديت
عذراً أيتها الخنساء
فليبق الأمل
لا سكاكين وجع في هذه المدينة
سر الملكوت
قرة عيني
عيناكِ
ياء.. سين
بداية جديدة لكل أم
وقتي من ذهب
القائد الصغير
سمير وهدفه النبيل
لأنكِ مني
قابلتك في المترو
قبة الحياة
ماريوه
لقاء غريب
وحينما افترقنا
دوائر
آخر قطرات الحنين
اليوم الأجمل لم يأت بعد
عندما ينطق الحرف
الغروب الأخير
رانت الأيام

أبعد من الكلمات
اتجاه إجباري
قصة عشق - ج١
سجود المشاعر
رسائل لم تصل
بين أجنحة الكاردينال
أسيرة روح
صغيرتي
حكايات رحال
جوري
غربة روح
توءم الشعلة
عادي في بيتها
رسائل منسية
خلف القلوب الصامتة
وقابلتُ شيطانا
تزوجيني أولا
لم أكن أتوهم
ملاك أنت أم بشر؟
العملية كوبرا
ذلك الغريب
عاشقة على سفح القمر
احترس هناك بشر
قسمة ونصيب
مع العصفور
برادلي ولغز أهل النجوم
أزرق داكن
عنوان غموض
مخطوطة إبليس
حبر الألم
متاهات الحجرة المغلقة
طريقي بقربك
موعدنا ذات صباح
بلدة على أطراف العالم
بين طيات الهوى
أسرار الالتفات في سورة النحل
سكين ودماء
رجة عقل
تاج
كأولين
صديقي عرّوب
حكايات شارع العمدة
محاولات في القافية
دور المجمع العلمي العراقي
عاليا يا عرب
حروف مبعثرة
القرآن خارج الصندوق

نعم أحبه.. ولكن
فرس على جبل
لامار
عندما يُعشق الزيتون
أخر الحلم
حواء تحت الهامش
سيكولوجية النهاية
عنكبوت اللهفة
حديث لا يقبل الرحيل
ذات الرداء السماوي
العنقاء
ضمير الشيطان
الحياة في ريفانا
امتنان
سقوط بطئ
السر الآسن
شيفرة القدر
لسان التمساح
ليليان
بطل بلا عنوان
مشكاتي تنزف عشقا
نحو مقاربة جديدة لإعادة التربية
ظلال على جدار الروح
إعدام القيود
أنتِ قدري
هذه هي أنا
التدفق في عروق الذاكرة
من بين عيونك باتولد
صدفة
خواطر قلبية
مبرر نهائي
موسم الأحلام
حقيقة وما بعدها
صوت وصمت
خواطر الثامنة مساء
أحلام مبتورة
دموع الشتاء
حينما فاض قلبي
حكواتي هذا الزمان
مميز بالأسود
صحفية على هامش الحب
قطوف أندلسية
دراويش وكرامات
قبل النهاية
دينامية المشروع الشخصي
كبير العيلة ٢
كما سقطت الفراشة

كانت لنا أيام
مكالمة خاطئة
أغنيات الرحيل
حكايات الشهيد
وجع الذاكرة
الحلبية
كبير العيلة ٣
وتناثرت الأجزاء
العالم متر في متر
على جناح الحلم
شهقة نبض
اعتذار غير مُجدي
ظلال المرئي
طفولة بلا زوابع
أسطورة قلبي
دلني على السوق
كلمة أم حكاية
بقايا ذاكرة
تدريس اللغة العربية
رحلتي إلى السودان
أطلال أحلام
لم يعد قلبي لغيرك
في ظل الحبر (ج٤)
جريمة أبريل
الجذور
عالم الشياطين
آمال
رسائلي إليك
ليلى والمجنون
جدار الذكرة
غيابة الجُب
سيد الشر
حنين إلى الدهشة الأولى
لظى الثلج
بدون مقابل
رسائل اشتياق
المقدس سره
مملكة في رحم امرأة
الكونتيسة
مصريخ
مالاهاياتي
بطعم الحب
طرقات مختلفة
سامح على اسم خاله
ضواحي المدينة
خريف ٢٠٩٤
أشواق مبعثرة
التربية على قيم حقوق الإنسان

جنينة العكارشة
سرابيل الخوف
الحب كما يجب أن يكون
حلمي حلمك
رحلة طبيب إلى الحج
للحب كلمة أخيرة
طيور في سماء الإحساس
كوفيد التاسع عشر
سبريتوس جيمناي - سحر أورتم
القصة القرآنية ومدارج التأويل
وريث فنريسولفر
أمل بعد حب وخيانة
لنا عودة
هي والقدر
بروليتاريا
نقطة
وادي الرماد
لأجل هذا خلق الحزن
مدرسة العظماء
على حافة اندلاع الاعتقاد
كل الطرق تؤدي إلى السادسة
صباحاً
على حافة الرصيف
سبل الإيمان
وحدك وحدك
أساطير الحب
خلوة
أنا المؤرخ
من قلبي سلامٌ
لحظة قدر
سفينة النجاة
موقعة شارع العمدة
الطفل المميت
القابعون تحت القيود
لغة الجسد في القرآن الكريم
هديتي لأحبتي
هيرنيا
لم تكن صدفة بل كانت قدراً
كلمات
شيرخان
في براح الأمنيات
فلنبدأ القتل
وأخاف أن..
قطوف مغربية
الاغتراب الصوفي الأندلسي
مضمار العشق وعنواني
على جبين القمر
آر إتش(RH)

أسرار لغة الجسد
مداعبات فكرية
مرسومة يا عيون الصبية
جريمة في المالديف
صائد الصفقات وصغيرته
خريف الأندلس
مجرد حضور
نزاعات المشاعر
مجموعة إنسان
بعد الفراق
في ظروف غامضة
كلنا ندفع الثمن
شاي بالحب
أوراق البيلسان
صراع في أرض الفيروز
الشتاء الأخير - ج١
البحث عن الحقيقة
عم صابر
خوف وقصص أخرى

www.lotusfreepub.com

رقم الإيداع
2021/3223

الترقيم الدولي ISBN
978-977-6839-43-4

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف